37

أدركني يادكتور

شعر

ابراهيم ناجي

دَارالعَودَة - بَيروت

ابراهيم ناجي

أدركني يا دكتور

دار العودة - بيروت

١٩٧٧

العنوان : كورنيش المزرعة ، بناية رڤييرا سنتر ،
الطابق الخامس ، هاتف : ٣١٠٨٤٠ – ٣١٨١٦٥

اهـــداء الكتاب

الى زملائي الاطبـــاء . الـــى مرضى القلوب . الى مرضى الاجســـاد ، الى الى مرضى الارواح ، الى الشهداء الذين اكتظت بهم ساحة الحياة ، الى الاولي يتطلعـــون الى السلـــوى وينشـــدون العزاء .

أقدم هـــذه الاعترافـــات ، هـــذه التجارب ، هـــذه الاصـــداء . لعلهـــم يجدون فيها ما ينشدون مـــن راحـــة لكروبهم ، وهدوء لقلوبهم .

ناجي

مقــدمة

لعل أعرف الناس بالناس هم الاطباء ، ولعل أقـل الناس تحدثا عن الناس هم الاطباء . ذلك لان قلوبهـم من فرط ما وعت ضاقت عن الافضاء ومـن فرط مـا أحسنت طويت على البرحاء .

لكنني خلقت بقلبين : قلب الطبيب وقلب الشاعر قلب الطبيب يمتلىء وقلب الشاعر يعبر .. فلقد كانت التجارب الانسانية ترتسم في خواطري مضاعفة ، والآلام البشرية لها في جوانحي صدى مرن ، والفوتوغرافيـة التي تنعكس عليها المرئيات ذات لوح يلتقط مرتين ..

أعرف كثيرين من زملائي الاطباء ذوي النزعة الادبية الشاعرية ، يمارسون الكتابة في خفاء ، وينظمون الشعر بينهم وبين أنفسهم ، ويأبون أن يذيعوا ما مارسوا في

خفاء وينظموا خلف الستار ، ولقد تحدثت اليهم قائلا ان الاطباء لو كتبوا أجادوا ، ولو أذاعوا ما علموا ، لاحدثوا رجة في الادب ، وتغييرا في أساليب الحياة ، لانهم وحدهم الذين سيكتبون بلا نفاق · ويصرحون بالحقائق في غير رياء ذلك لانهم لا يخشون أحدا ، ولا يرهبون صولة انسان ·

ومن يقلب صفحات تاريخ الادب يعثر على مؤلفات أدبية لاطباء مشاهير ، مؤلفات قليلة حق ، ولكنها خالدة باقية بقاء الزمن ···

ولا شك ان اكثر القراء الاعزاء قرأوا قصة الطبيب السويدي الاشهر سلفان اكزل مونته ، أو قرأوا قصة للطبيب الاديب دوهاميل ، أو قرأوا قصة القلعة للطبيب الكبير كروتين ···

لم تكن هذه المؤلفات قصصا في الواقع ، بل تجارب انسانية صادقة أتم الصدق · وهؤلاء الاطباء الادباء تميزوا في كتابتهم بالبساطة التامة ، فهم لا ينمقون في أساليبهم ولا يهرجون في ألفاظهم ، وانما يتوخون الصدق ، ثم الصدق ·

ولماذا نذهب بعيدا وهذا تشيكوف سيد أطباء القصة

بلا منازع ، وأقول أطباء القصة ، لا أدباءها ، لم يكن يصور الا الواقع ، ولا يرسم الا الحقيقة ... وكان من قوله المأثور « الادب هو الصدق وليس غير الصدق ! ».

وبعد ، فهذه اللمحات التي جمعتها من هذه التجربة وتلك ، ومن ذلك الصدى وهذا ، سجلتها حسبما جرت، ردونت وقائعها كما حدثت .

ولقد دفعني لكتابة هذا الكتاب حاجة ملحة في نفسي ودافع لم أستطع مقاومته ، ذلك لاني من اكثر الاطباء اختلاطا بالناس ، واندماجا في الشعب ، صغيره وكبيره . مرضاي أصدقائي ، وزبائني ليسوا غرباء عني . فهم جزء غير منفصل من حياتي . وقد عشت أؤمن ان المريض ليس « حالة » كما يقول الاطباء كثيرا ، وانما هو « انسان » وان العلاج لا يكون في تذكرة الدواء . وانما في فهم ذلك الانسان ، في مقاسمته آلامه في الاصغاء الى متاعبه ، في بذل العطف الصادق له ، في منحه الحنان الذي فقده في العالم الواسع ، وضاقت الدنيا به على رحبها ..

وختاما أتمنى أن أكون أدركت من يقول « ادركني يا دكتور .. » أدركته وفي يدي شيء من الدواء ، والشفاء .

ناجي

داده حليمة

عندما تخرجت في كلية الطب سنة ١٩٣٠ لم يكن معي في جيبي غير قروش معدودة ٠

وكان أبي وأمي قد سافرا الى الحجاز وأطالا اقامتهما هناك فكان لزاما علي ان اقبل أي عمل بالمستشفى ، لانه لم يكن هناك من سبيل للعمل الحر ـ الذي كنت أوثره ـ بدون المال ٠

ولما كنت من أوائل المتخرجين فقد لوحت لي الجامعة بشهادات الشرف ، والبعثة ، والمجد المرموق ٠

فقضيت ليلتي في صراع عنيف بين جدران الحكومة وفضاء الحياة ٠ وعند قرب الفجر لم أجد مناصا من قبول وظيفة صغيرة في قسم الجراحة ٠

وكان الاستاذ الجراح فظا متألها ، وقد سرت عداوة الى مساعديه ، فصار كل مساعد يجد ان من الاستاذية وأصولها ، أن يدق عنق من هو أصغر منه ، ولقد أدركت مع كبير الاسف ان على الصغير ان يقبل الظلم صاغرا ، والاهانات راضيا • عليه ان يبتلع في صمت • ولما كنت واثقا من نفسي فقد كنت اعتقد اني لن أقع مرة واحدة تحت طائل اللوم أو الزجر من أحد •

على اني كنت أسمع بأذني الشتائم التي يوجهها الكبار للصغار فأجد حافزا فظيعا للتدخل ، أحب ان أقول للكبير ان هذا ليس السبيل الصحيح للاستاذية وأحب أن أقول للصغير عليك أن ترد الاهانة بالاهانة اذا كنت واثقا من نفسك ومن عملك •

وفي كل مرة كنت أضبط أعصابي • ولكن المسألة تفاقمت وأخذ المرجل يغلي في داخلي • الى ان حدث ان الاستاذ الكبير كان يجري عملية « فتح بطن » • وكان هذا الاستاذ حمارا غبيا حصل ما حصل بالتجربة ، وبالوفيات التي لا يحاسب عليها فاذا اعترضه أقل شيء يتطلب الذكاء وسرعة البديهة ، أسرع بانهاء العملية كيفما اتفق ••

وفي ذلك اليوم كان « ملخوما » لخمة لا نظير لها ،

وكلما دب مشرطه أصاب شريانا كبيرا ، فلا يلبث الدم أن يندفع للسقف وهو يصيح بالممرضة « فوطة فوطة » حتى اذا فرغت الفوط ولم ينقطع سيل الدم التفت الي بحمق وقال « !انت مش عارف تساعد » ، « انت حكيم ايـه » .

ضبطت أعصابي دقيقة ودفعت يده بحزم عن حقـل العملية ، وفي بضع ثوان كنت قد أوقفت سيل الدم بعد ان تعب في ذلك نصف ساعة ، ثم نظرت اليه لعله يشكرني . فصاح بحمق أكثر : مين أذن لك تحط ايدك في العملية ... فغامت الدنيا في عيني ووجدت نفسي أقذفه بكل آلة جراحية على المائدة . ثم خلعت معطفي وقفازي وألقيتهما في وجهه ، على مرأى من الجميـع واندفعت هاربا من المستشفى .. وما زلت أعدو حتى وجدت نفسي أقـف عاري الرأس في ميـدان العتبـة الخضراء ، وبلا سترة . فدسست يدي في جيبي فاذا بضعة قروش . وليس لي الا ذراعي وعقلـي والهـواء الطلق ..

وأجلت بصري هنا وهناك أبحث عن شيء أو شخص ، لا أدري بالضبط ما هو ، فوجدت لافتة معلقة في عمارة مواجهة ، مكتوبا عليها « للايجار » وبجانبها لافتة اخرى

مكتوبا عليها « الطبيب فلان اختصاصي في الحقن الجلدية » ولافتة اخرى مكتوبا عليها « الطبيب فلان اختصاصي في الامراض الباطنية والجراحة والولادة وأمراض النساء ، وخصوصا امراض الاطفال » ...

ضحكت وسري عني في الحال وعزمت على استئجار الغرفة الخالية لانافس هؤلاء المشهورين ، وبينما أفكر في ذلك وأنا في شيء من الذهول اصطدم بي شخص يسرع نحو الترام فأحدثت القروش التي في جيبي صوتا نبهني الى انها أقل من ان تكفي لغذائي لا لفتح عيادة في العتبة .

ولكنني قلت لنفسي هيا بنا نسأل . وفعلا صعدت فعلمت ان الذي يؤجرها صيدلي عجوز ، صيدليته كائنة في نفس العمارة . فذهبت اليه ، وعرفته بنفسي ، مدعيا انني استاذ جراحة بقصر العيني .

فقام الي معانقا وقال : « انت ابن فلان بك » دهشت وقلت « نعم أتعرفه » ..

قال : كيف لا . اننا أصدقاء من سنوات طويلة . هل عاد من الحجاز ؟ قلت كلا انه سيعود قريبا ، ثم أسرعت قبل ان تفوت الفرصة قائلا : « على فكرة ...

الغرفة التي بأعلى كم ايجارها ؟ » « قال متفرسا في كأنما يتفرس في شخص عزيز » ايجارها غال ولكن لماذا تدفع ايجارا ؟ انت طبيب مشهور ، ويكفيني تذاكرك ومرضاك ، ثم نتحاسب اخر الشهر ، وزيادة على ذلك فهي مفروشة فرشا يليق بالاطباء ، ويمكنك ان تبدأ بالعلاج الباطني فانه في هذا الحي رائج السوق ، ثم انك لا تحتاج لادوات كثيرة ·· ثم ضحك وقال « مكتب وسماعة ··· اطلع يا بني اشتغل الله يفتح عليك » ·

في اليوم التالي ، بدأت العمل ، أي جلست انتظر الرزق الذي يهبط من السماء · فصعد الي بواب العمارة، وكان زنجيا ظريفا لبقا ، فجاذبته اطراف الحديث ، فعلمت انه يريد ان يجري عملية ختان لاولاده وأولاد أخته وأولاد أخيه ، فقلت له : علي بهم جميعا غدا ···

وشكرني وانصرف على أن يجيء بهم وجلست افكر في كيفية العمل ··· العمل بلا أدوات جراحية فقلت لنفسي : لماذا لا أختنهم جميعا بموسى حلاقة ، وقطن وشاش وسبرتو نقي من الصيدلية ـ على الحساب !

وفي اليوم التالي جاءني بهذا الجمع الغفير من الغلمان ··· جاء بهم وقد خضبوا أيديهم بالحناء ،

وأطلقوا حولهم الزغاريد ، ووقفت العمارة بأجمعها على قدم وساق لتتطلع الى هذه الزفة ٠

تمت عمليات الختان بسرعة ، وصار البواب يجيء بالغلمان كل يوم « للغيار » فتكررت « الزفة » كاعلان رائع ٠

وكان عم حسن لا يكف عن الثرثرة والدعاية ، فما لبثت العيادة بين عشية وضحاها ان امتلأت بالمرضى ، حتى صاروا لكثرتهم يقفون على درج العمارة ٠٠ وقد كنت أجلسهم في الدهليز المجاور لغرفتي الوحيدة ٠

دهش الصيدلي لنجاحي السريع وصعد الي وسط الزحام يهنئني وزاد على ذلك ان قال انه كان يعرف عن « شهرتي » الشيء الكثير قبل ان يسعده الحظ بلقائي ٠٠ فقلت في نفسي : لا بد انه اختلط عليه اسم اخر ٠٠ ما علينا ٠

الى ان حدث ذات يوم ان سمعت جلبة في الخارج واذا « بالطبيب الاختصاصي في الحقن الجلدية » يجر احدى مريضاتي جرا لعيادته ٠ وكانت تصفعه وتشتمه وهو يبرطم بلغة لا أفهمها وصعد عم حسن على صوت الشتيمة ، فلما عرف السبب انهال على الطبيب العجوز

لوما وهو يقول « مش عيب انت لك عشرين سنة في العمارة ... حكيم صغير له شهر واحد » .

وبينما هذا يجري ، التفت الى المريضة المتنازع عليها فاذا بها زنجية وسيمة ، يبدو عليها اثر النعمة السالفة ، ولها رائحة مسكية لا تشم الا في قصور الملوك .

قالت وهي تسرع نحوي : « اسمي حليمة يا سيدي ، مدح لي فيك شيخ سوق الخضار اللي عالجت أولاده ... والحكيم العجوز ده بيجرني عنده وبيقول لي اخذ منك نصف ريال فقط » .

هدأت خاطرها . وجذبتها بلطف الى غرفتي حيث استمعت الى شكواها ، وفحصتها فحصا دقيقا ، ولما كان من دأبي أن أخلق من المريض صديقا ، فقد كانت عادتي ان انقله بسرعة من دائرة المرض الى دائرته الشخصية فأجعله يتحدث عن احواله الخاصة ، وآلامه الذاتية فعلمت من داده حليمة انها كانت في قصر راتب باشا ، ثم تزوجت .

ومات الباشا وزوجته ، ففقدت بفقدهما اكبر سند لها . غير انها استطاعت ان تعمل ، تخدم وتغسل وتكوي ، حتى أمكنها أن تربي أولادها ، ولكن مع الاسف

غالهم الموت واحدا بعد واحد ، ولم يبق لها من الدنيا غير ابن ابنتها ، ماتت بعد ولادته وتركته لحليمة تربيه وتسهر عليه فجعلته سلواها وراحتها وانقطعت له لا ترى الدنيا الا بعينيه ، والعالم الا في ابتسامته ..

إخذت الالفة تزداد بيني وبين داده حليمة ، حتى صرت أزورها في غرفتها الصغيرة ، وأتناول القهوة عندها • وأحيانا تعد لي فراشا نظيفا لنضطجع قليلا أثناء النهار وكان سلوتي وريحانتي « سعد » الزنجي الصغير الجميل .. كان جميلا جمالا خارقا ، ناعم البشرة أبنوسي الوجه ، واسع العينين رائع الابتسامة يلقي بنفسه علي حين يراني ويأخذ في الضحك •

وكانت هي تقول : « سعد ده التمرجي بتاعك لما يكبر » ..

ذات يوم جاءتني داده حليمة مذعورة ، وأخبرتني ان « سعدا » في اخر أدوار المرض ، فلما استزدتها بيانا أخبرتني انه ظهرت على ساقه دائرة حمراء ، فاستشارت جيرانها فأشاروا عليها بجراح شهير ، غير ان أجره مرتفع ، فجمعت المسكينة كل ما لديها • واستشارت ذلك الجراح ، والواقع انها استدعته ودفعت اليه كل

ما اقتصدته في عام · فأخبرها ان الولد عنده « خراج عايز فتح » و « المقاولة » خمسة جنيهات علشان خاطرك فاستدانت المبلغ ، وفتح الخراج فلم يظهر منه غير دم صبيب وصار الجراح الشهير يعوده « للغيار » والمريض تزداد حالته سوءا من يوم ليوم · فاضطرت المسكينة للاستنجاد بي ·· فذهبت الى غرفتها · الى حيث كنت أجد راحتي عند هذه المرأة الفقيرة الطيبة ، وأفرح بلقاء ذلك الوليد الضاحك الجميل ··

ورأيت سعدا يتنفس بصعوبة وقد علت شفتيه زرقة الموت ، ففتح عينيه ونظر الي محاولا ان يضحك ومد يديه كعادته الي محاولا أن يحتضنني كما ألف · فعجزتا عن الحركة ، فصار يدفع بهما في يأس وغضب شبحا مخيفا يجثم على صدره ويضايقه ، كشفت عن ساقه فوجدت « حمرة » ممتدة من أعلى الساق لاسفله ·· لم يكن ما يشكو منه خراجا مطلقا بل حمرة لعينة ·· فصحت بها غاضبا : ما اسم الجراح الذي فعل له ذلك ؟!

قالت : « فلان بك » ·

فصحت بدوري مرتاعا « هو !·· هو ذلك الجاهل » ·

كان فلان بك نفس الجراح الذي بسببه هربت من المستشفى ٠٠ في المستشفى جهل وغباء وقحة ٠٠ وفي الخارج أرواح بريئة تزهق ٠٠ تأبطت أشيائي بسرعة ، عازما على الخروج ، فقالت الى أين ؟٠ قلت الى « فلان بك لاصفعه ، ولاشفي غليلي منه » ٠

قالت : « دعه لله ٠٠ » ٠

فأطرقت ممتثلا ، لاني كنت أترك كل أعدائـي لله فيتكفل بهم » !

كتبت لطفلها ما استطعت من الدواء ٠٠٠ وعدت في اليوم التالي فاذا داده حليمة قد وقفت امام باب غرفتها زائغة البصر ٠٠٠

خلت الدنيا عـن أنس ذلـك الصغير الـذي كـان لهـا ٠٠

وهبت ريح تعبث بثيابها ، وكأنما تسخر منهـا ، وهي تجيل نظرها في الوجـود ٠٠٠٠ فـاذا الوجود لا شيء !

تحليل نفسي

قال الطبيب الكهل :

كنت في شبابي مغرما بالتحليل النفسي · وكنت عاشقا لفرويد · اقرأ قصة حياته في عبادة وايمان · وكانت أمنيتي الكبرى ان أكون فرويد مصر ·

ولكن شيئا واحدا كان يخيفني هو أن يحدث ما حدث لصديقه فرويد فقد شفى سيدة من مرضها العصبي فأحبته حبا جنونيا ، وتبعته في كل مكان حتى أقضت مضجعه وجعلته يهجر التحليل النفسي ويسلم مذكراته لصديقه فرويد مقسما ان لا يعود الى ذلك العلم طول حياته ·

ويظهر ان الشهرة في هذا الباب سهلة · فان نصف المصريين يشكون من الكبت · والنصف الثاني لا يشكو

من شيء مطلقا • نصف مرهف الحس جدا ، ونصف استحال الحس عنده مادة • المهم ان شهرتي استطارت في الحي • اكتظت عيادتي بالمرضى • وحتى أغار ذلك جيراني من الاطباء •

وكان يجاورني في العمارة استاذي الدكتور م• وهو من أعظم الاطباء الذين عرفتهم فـي حياتي ، وله أدين بكثير مما أعرف بل كان في الواقع من أعظم المعلمين ـ والقدرة على التعليم هبة خاصة ـ كنت أحبه وأقدره فاستمرت الصداقة بيننا بعد الدراسة ، وطـالما زرتـه وزارني •

أما أنا فكنت أعجب لقلة المرضى لديه ، فعنده عيادة فخمة وأثاث فخم وثلاث ممرضات حسان ، ولكن قلما رأيت مريضا يستشيره • اما هو فكان يزورني فـي عيادتي البسيطة المتواضعة فيعجب لهذا الزحام وقـد سألني مرة عن السر في نجاحي ، فقلت له انت تكتب تذكرة ، وأنا أعالج النفوس • فضحك وقال : عنـدي سيدة غنية حرت في علاجها وسأرسلها لك هدية ، ان عندها من المال ما لا يحصى ••• تمتع •

وفعلا زارتني السيدة في اليوم التالي :

سيدة رائعة الجمال ، تجملت بكل حليها وذهبها ولها عنق أتلع كالمرمر ، وضعت حوله عقدا من اللؤلؤ يغري بذبح ذلك العنق الجميل . وفوق ذلك فلها لثغة في الحديث تكفي لهزيمة جيش جرار .

قالت وقد جلست في دلال : الاستاذ م. أرسلني اليك .

قلت : أهلا . ماذا بك يا سيدتي ؟

أشارت الى جنبها الايمن ، ثم أشارت الى قلبها ، ثم أشارت الى رأسها ثم تنهدت وأشارت الى قدميها فعلمت انها تشكو من امعائها ، ومن الصداع ، والخفقان وضعف في الحركة .

قلت بسرعة : فهمت كل شيء ، غير اني اريد ان تتحدثي أولا ، تحدثي بحرية وانطلاق . ثم أجلستها على كرسي مريح ، وجلست قبالتها على كرسي مريح ، فأسبلت أهدابها الجميلة ، وانطلقت تقص قصتها ، فعلمت انها جناية الجمال ، الذي يقع في أحابيل البلطجية والسفلة .

تزوجت ، وكانت سعيدة ، غير ان القدر أرسل لها قدرها في زي انسان يلبس ثياب الصداقة لزوجها ، فما

وطئت قدمه البيت حتى جعله جميعه تحت سيطرته ، البيت ، وما في البيت : الزوج والزوجة والمال والبنون ... وقد ظل يسيطر على الزوج حتى فقد جزء من ثروته ومات مقهورا ، فمد شراكه حولها وظل يطاردها وهي لا تستطيع الخلاص منه ..

قلت : « وما وظيفة هذا المحترم » .

قالت : مفتش في شركة مصر الجديدة .

ضحكت وقلت : « هل هو جميل . قوي ، ما هي مؤهلاته ؟ » .

ابتسمت وقالت : « ملاكم ممتاز » .

قلت : « هيا افحص جسمك » .

وبعد قليل قلت في حزم :

« اسمعي يا سعاد هانم .. مرضك المصران الاعور ».

قالت في ثقة « انت بارع . اني كنت واثقة من ذلك وكل الاطباء الذين قبلك خدعوني .. » .

قلت : اذن لا بد من عملية .

قالت في ثقة وعدم مبالاة « لا بأس » .

ثم سألت بعد قليل « بأي الجراحين تثق » .

قلت « انت حرة وعليك أن تسألي وتتأكدي » ٠

بعد ان خرجت من عندي ، أسرعت فاتصلت بكبار الجراحين جميعا وقلت لهم ان فلانة هانم ، ستستشيركم في مرضها ، والمسألة اننا نريد ان نجري لها « عملية مصران أعور وهمية » ٠

وفي صباح يوم لا أنساه ، أجريت العملية الوهمية في عيادة الجراح س ٠

وبعدما أفاقت من المخدر أريناها زائدة دودية ليست لها فاقتنعت وتمت المعجزة ٠

وشفيت سعاد هانم ٠

غير ان الذي حدث انها تحولت الي بقلبها وأحبتني حبا جنونيا ، وصارت لا تبارح عيادتي أبدا ٠ وحرت ما أصنع في هذا ٠ ولم يكن خوفي من حضورها ، وانما كان خوفي من ملاكمها الشهير ٠

وقد حدث ما توقعت فان المفتش الملاكم دفع بابي ذات يوم وبكل وقاحة أنذرني اذا عدت للاتصال بهذه السيدة ٠

وبكل غطرسة دخل غرفة السيدات ، وجذب السيدة من ذراعها وخرج بها كالوحش الثائر بين عجب الناس وذهولهم ٠٠٠

انقطعت السيدة عن المجيء ، وكدت أنسى ما حدث ٠ غير أني ذات يوم كنت في ترام المترو ، مع خطيبتي وأمي ، وأمها ، فاذا بالمفتش المحترم يظهر أمامي فجأة ، وبعين تقدح شررا ، نظر الي وقال لي : « انت فلاح حقير » ٠٠٠

ثم وقف متحديا ليرى ماذا أصنع ٠

وقست قامتي بقامته فوجدت ان بنانه كاف لسحقي ٠ وفي لمح البصر ، تذكرت ما حفظته في دروس المصارعة اليابانية ، وتذكرت ان المجموعة الشمسية في البطن حساسة جدا لقبضة اليد وطرف القدم ، فلكزته فيها بطرف قدمي بغضب وعنف ٠ فهوى الجبل في الحال ، واصفر لونه ، وغاض الدم من وجهه ٠٠ وتجمع الناس وطلبوا مني أن أتركه « لوجه الله » ٠٠

فقلت : « كلا ان بيني وبينه حسابا قديما » ففتح المفتش عينه في ضعف واعياء « رايح تسيبني أموت يا دكتور » ٠

ملت على اذنه قائلا : « تسيب سعاد » ٠٠

فأشار بالايجاب وهو يزداد اغماء وغيبوبة ٠

وقد كانت الصدمة التي أحدثتها في امعائه بقدمي بالغة ، بحيث عدته شهرا كاملا حتى شفي ٠

وقد بر بوعده وأطلق سراح الجميلة المسكينة سعاد ٠

أثر الماضي

كان طبيبنا يميل الى قراءة الفلسفة . على فرط ما كان يجيش به قلبه الانساني من العاطفة الدافقة . وكان هذا الميل الى الجدل والمنطق هروبا من العاطفة العمياء .

في المساء الذي نحن بصدده ، جلس يقرأ كتابا في فلسفة الهروب ، فخطر له ان حياته سلسلة من الهروب ... فارتاع من ذلك الواقع المفاجيء ... لقد كان يظن انه شجاع يواجه أصعب الامور ، فاذا حياته تتأرجح بين الهروب والتعلل .

ترى هل كانت قصته مع ليلى هروبا ؟

واذا كانت هروبا فمن أيهما ؟

ربما كانا يهربان من الحياة ، ربما كانا يهربان من الواقع . ربما كانا يهربان من نفسيهما ٠

ومن يدري ٠٠٠ ربما كانت ليلى تهرب من ماضيها ٠ ولكن ما هو ذلك الماضي ؟ انه لا يعرفه بالضبط ٠ وأي انسان ليس له ماض ؟

كل انسان له حب قديم وعثرات قديمة ٠ وهــذا هو الماضي ٠٠ وماذا يشين ليلى من ذلك ؟ ولماذا تحاول أن تخفيه عن زهدي خطيبها وحبيبها ٠٠ حقيقة « لقــد ألم به وجمع أوصاله من هنا وهناك . ولكنه ظل هيكلا ناقصا ٠٠

انه يحاول أن يحبث قصة من ذلك الماضي ، ثم يحاول أن يتبين اثر ذلك الماضي في روح كروح ليلى ٠ وفائدة الفلسفة انها تربط أجزاء السلسلة . وتجمع المتناقضات، وتضم الفروق . وأخيرا حين يتم لها عرض الامور حسبما يرتاح المنطق المتزن تتسع نفس الفيلسوف للغفران ولا تضيق ذرعا بالنزوات ٠ اذ يتضح لها أن الماضي والحاضر والمستقبل حلقة واحدة . وان حادثة واحدة فــي الصبا تجر ذيولها وآثارها للنهاية ٠٠٠

ولكن الذي كان يحيره من أمر ليلى انها كانــت لا

تبكي أبدا .. وهذا بعكسه تماما .

فانه كان يبكي كالطفل . لاقل ما يحدث له انفعالا ..

وانه ليذكر انه هو وهو الطبيب المجرب الكهل كان يجلس اليها في الاماسي الطويلة على النيل يقرأ لها من هذا الكتاب وذاك ، والعبرات تترقرق في عينيه ، فاذا فرغا من القراءة قلبا صفحة كتاب اخر . كتاب حبهما ، فتعاوده العبرات ثانية . كلما جاشت الذكريات وتلاحقت الخواطر .

أما هي فكانت قاحلة المحجرين دائما ، الا من وشل طفيف ما يكاد يبللهما حتى يغيض . ولقد حاول أن يرى أثر الماضي في عاتين المقلتين .. فكلما تبين لمحة منه أسرع فعرضه ثم نظر الى سماء عينيها لعله يرى تدني المطر عندهما ...

قالت ذات مساء ، وقد جرى ذكر عزيز مات « قم بنا ... قم بنا ... » وتندت عيناها بالدمع للمرة الاولى من يوم ان عرفها زهدي ...

فأخذته الغيرة ، وتمنى لو كانت هذه الدموع هي الوحيدة التي تذرفها في حياتها ولكن على قبره هو ... زهدي .

وصحبها الى الخارج ، وهو يقول لها آه انت تبكين٠٠ هذا عجيب اني أغار من الدموع ، أغار منها غيرة المجنون من غريب الجروح على قبر ليلى ٠

ثم أخذ يلح عليها في السبب الذي من أجله ذرفت هذه الدموع فأسرعت بالهروب من أسئلته ، وأسدلت ستارا سريعا على ذلك الموضوع ، ولكنه طواه مرغما ، وقد عقد النية على أن يعود اليه في وقت اخر ٠

وظل ليلته ، على طريقته الخاصة ، يفلسف العذر ، ويتساءل عن اثر الماضي المؤلم في تجفيف العبرات أو ذرفها ٠ ويتساءل ايضا هل في الوجود امرأة لا تبكي ، ويتساءل كذلك هل في الوجود امرأة بكت طويلا حتى نضبت دموعها تماما ٠ وتساءل ايضا هل يمكن لانسان ما ان ينسي انسانا اخر ماضيه تماما ؟

كانت نفسه الاخرى تجيب على السؤال الاخير : « كلا ٠٠ كلا ٠٠ » ألم تدرك وأنت طبيب نفساني ان هذا مستحيل ؟ « ان هذا الماضي لينبثق فجأة وعلى حين غرة ، وانما في شكل حاد ، ويبرز على غير انتظار في زي نقم دفينة غائرة ، ملتفتة هنا وهناك عن شيء أو أحد ينقض عليه وتشبع ضغائنها منه ، يشبه وحشا أعمى ، يستيقظ

فجأة ، ولسبب تافه لينشب براثنه في أي مخلوق وقد يكون ذلك المخلوق أعز الناس لصاحب ذلك الـوحش ومخفيه في أعماقه ٠

كانت العيادة خالية تماما ، وهو يفكر في هذا الوحش المنقض فيدفعه بيديه عنه في رعب وفزع وكلما دفعه عاد اليه في وثبة أشد ايلاما ٠

لقد كان النزاع الاخير الذي بينه وبين ليلى ، والذي أدى الى فض خطبته لها ، نزاعا من هذا الطراز ٠ وكان السبب تافها جدا ، تافها بحيث انه كلما ذكره ، يعجب للاسباب التافهة التي تقضي على حب طويل في لمحة عين وتحطم ألفة متينة بمعول صغير ٠٠ كان السبب انه تأخر عن ميعاده بضع دقائق ، وقد أخذته مؤاخذة مرة ، بينما هي تعلم انه طبيب مشغول ، وطالما تأخرت ساعة وساعتين ٠

وفي هذه الليلة كان كلما هدأ ثائرتها معتذرا أبت ان تقبل عذره ، وعدت هذا التأخير اهانة لها وتحقيرا من شأنها ، وعدته كذلك نقصا في حبه ، وعدته كذلك نقصا في رجولته ٠٠ وفي الواقع اعتبرت هذا التأخير دليلا على ألف رذيلة كان زهدي يخفيها عنها ٠٠

وأخيرا أخذت على غير وعي تصب احقادها وتندفق كما يندفق السيل .. سيل الكبرياء الجريـح والاباء الذبيح .

انه لم يرها مطلقا بعد ذلك ، فقد حنى رأسه لهـا ولحبها صاغرا ... الا اليوم . فان السبب كان أنفه عن ان يحاسب عليه . فكيف بها وهي تنسب اليه من أجله ما بطن وما ظهر من الرذائل .

كان أمامه على مكتبه كتاب مفتوح فطواه ، يعني انه طوى أمر ليلى ... وهنا سمع وقع أقدام رقيقة ، فأفاق من تفكيره فاذا بالقادم « مديحة » .. مديحة التي طالما ارتاح الى عينيها الواسعتيـن الجميلتيـن ، ويرى فـي اتساعهما ظلا وارفا ينبسط حوله وعليه ، ويرى في مقلهما العسلية شهدا ذائبا في وعاء من النور . وأعذب ما فيها ان انسانهما كان يتسع كلما حدق به ، كما يتسع الصدر الرحب لآلام الناس ومتاعبهم .

وكانت تمشي مشية الواثق ، وتخطو خطوة فيهـا تواضع وعلو كمشية الملك الذي خلى عرشه وهبط الى الطريق ...

وكانت اذا أقبلت زمت شفتيها الجميلتين على سخرية

العارف المشفق الفاهم الرحيم • شفتين أجمل ما فيهما انك تحس روحها واقفة على عتبتيهما •

وكان لها خال صغير على وجنتيها قريب من عينها • خال صغير كانسان صغير • فيه حياة وفيـه عذوبة ، وكان يخيل لزهدي أحيانا انه قلب صغير تفرع من قلبها الكبير • وكان يهم بلمسه أحيانا ليتأكد أنه ينبض كما ينبض القلب سواء بسواء •

مرت في خياله فكرة سريعة أترى هذه الفتنة المقبلة ، هذه الرشاقة الوديعة ، يمكن أن تثور يوما ما ، ولاتفه الاسباب ؟ ثم أيمكن أن تطوي جراحها على شيء غيـر الغفران والنسيان ؟

هل هناك امرأتان ، امرأة تجرح وتطوي الجرح على الرحمة والاشفاق ، وامرأة تجرح وتطوي الجرح علـى صديد ؟ أم هناك امرأة واحدة ••• هي كل امرأة •

أحب في الحال أن يطرح السؤال على مديحة ، فهو يعرفها ذكية ، ذكاؤها في قلبها ، وهذا الذكاء أرقـى طبقة من ذكاء العقل ••

فقال لها بعد ان صافحها :

« لي سؤال أريد أن أسألك اياه » •

قالت كأنما كانت تعرف ما يريد :

« السؤال الذي يحيرك في كل مرة ، عن المرأة وعن طبيعة المرأة لا يجيء اليوم الذي تفهمها فيه فتكف عن هذا السؤال ؟ اني أجيبك دون أن تسألني : النساء صنفان لا وسط بينهما ، جيد ممتاز ، ورديء جدا ٠٠ »٠

قال ضاحكا : « عرفت الرديء ٠٠٠ خبريني عن الممتاز » ٠

قالت : « تعرفها في دقيقة واحدة » ٠

قال مندهشا : « كيف » ؟

قالت : « امرأة تمنحك دائما ٠ تمنحك عطفا ، أو تمنحك اهتماما أو تمنحك شيئا ولو تافها ٠ ولكنها دائما تفكر في الاعطاء ، ولا تفكر في الاخذ ٠٠٠ وهذا نادر جدا ٠٠

أعني انك اذا تلفت تبحث عن شيء وجدت عينيها تدوران معك تبحثان لك ، وقد تراك تهم بالجلوس ، فتهم هي بتقديم الكرسي لك ٠٠ في غير ذلة ولا نفاق ولا تملق ، وانما هي عادة الاخيار دائما ٠٠٠ » ٠

فنظر اليها متعجبا ، لانها لا تدري انها تتحدث عن نفسها ٠٠٠

فاستطردت قائلة : « ولكن هذا الاعطاء ليس عاما ، بل مختارا ، واعيا ، ••• هذه المرأة لا تغير طبيعتها الجراح ، ولا المآسي ، فان نبعها ، نبع حنانها لا ينضب أبدا •• هي أم صغيرة •• هذه هي المرأة الممتازة » •

قال : فهمت •••

ومد يده اليها ومدت يدها •••

وأدرك انه امام امرأة ممتازة ، امام أم صغيرة كما قالت ، أم كانت تعامل من أحبت كأطفالها الصغار فلما جرحت منهم ظلت امامهم ، وأي أم تتنكر لاولادها •• أي أم تطوي احقادا لمن عطفت عليهم من اعلى ، وحنت عليهم من سماء مرتفعة •

وقفت مديحة ، متأثرة ، وقد أحست بجراح قديمة ، فمرت بكفها عليها ـ على غير قصد ـ تلطفها ، وتمسح آلامها ، وهنا ترقرقت دمعة ، دمعة رقيقة أسرع اليها زهدي فقبلها ، لانه كان ظامئا لهذه الدموع •

ادركني يا دكتور

وقفت السيارة البويك الفخمة عند منعطف الطريق القروي المتفرع ، وقد تعطلت ولم تستطع المسير • نزل منها شاب تبدو عليه متاعب السفر ومشقة الطريق الطويل • كان يرتدي بذلة « سبور » وقد تهدلت خصل شعره في غير نظام ، وانتكش شعر شاربيه السميك • كان في صورته هذه يمثل المصارع بعد جولة قاسية • عرق متصبب ، عضلات متراخية واعصاب متعبة • وقف امام السيارة وأخذ يفحصها ، فرغ الماء ، أدار عينيه هنا وهناك يتلمس مكانا يجلب منه ماء ، واذا ببضعة أكواخ متناثرة على سفح تل • أكواخ يجثم عليها الموت • وهذه الاكواخ وهذا الصمت الرهيب ، وذلك التل الكئيب ، هذه مجتمعة تسمى قرية ! ضحك في سره لانه كان باحثا اجتماعيا متحمسا ، لقد سره ان يكون تعريف

القرية في مصر : أكواخ بالية ، صمت ، لا أحد ...
ولكن الابتسامة سرعان ما انفضت من شفتيه وهو يذكر
موقفه الان . ان المثل الايطالي يقول : « كل ثم تفلسف »
وهو الان في حالة يأس وعطش وجوع . فما معنى
الفلسفة ، المسألة انقاذ ، ها هو الليل يلقي سدوله على
الاكواخ البائسة ويغطي مآثم الفقر على التل الحقير .

لقد كان عائدا مع خطيبته من الاسكندرية الى القاهرة
فضل الطريق ، وتعطلت السيارة في هذا المكان النائي
البعيد الموحش ، ولقد أوشك النهار أن يولي ، وهذا
هو الغروب ينشر ظلاله الحمراء كشبكة مخضبة بالدم وعليه أن
يمشي نحو الاكواخ البادية أمامه ولم يدر هل من اللائق
أن يصحب خطيبته لهناك أم يتركها في السيارة . تطلع
لداخل السيارة ، فوجد « نيني » مستلقية في تعب ولقد
ألقت برأسها الكليل الى الوراء ، فناداها فأجابت بصوت
خافت ضئيل « اين نحن الان » قال « لا أدري » وانما
علينا ان نضع ماء في السيارة قالت : « اذهب » قال
« لا أستطيع ان اتركك وحدك » .

وفتح الباب ، فنزلت وهي في اعياء شديد . وتطلعت

حولها ، وبدا عليها الوجوم والرعب ، ثم ألقت ببصرها نحو الاكواخ المتناثرة على التل ، ثم قالت انحن قرب قرية أم حفنة من القبور ! ما هذا الصمت • وأين أهل القرية ! كانت الفتاة ممشوقة القد فاتنة • ولكن في جمالها نعومة وفي كلماتها أكثر من انوثة • كانت على نقيض خطيبها من حيث قوة الشكيمة وصلابة العود • فانها لم تكد تلم بما يحيط بهما ، حتى أسرعت الدموع الى عينيها وظهر الرعب على وجهها الجميل •

وأخذ خطيبها يهدىء من روعها قائلا : « يجب يا نيني ان تتعلمي تحمل المشاق ، يجب أن تروضي نفسك على المكاره ••• فأجابت وقد نظرت الى أطراف أصابعها المصبوغة ، والى أصابعها المحلاة بالماس الغالي وصمتت كأنما تجيب : « لم أخلق لغير الترف والنعيم » ! التفت « ذهني » خطيبها اليها قائلا : علينا الان ان نواجه الحقائق ، علينا ان نتدبر • أأتركك وحدك أم أسير الى هاته الاكواخ لاعود بالماء ؟ قالت أسير معك • قال : « سترين البؤس والضنك والفقر والجهل بعينيك• تبصرين ما لم تبصر عيناك في قصر أبيك • قالت وقد أبدت اشمئزازا أقف في الخارج بينما انت تدخل لتعود بالماء • قال : « حسنا كما تريدين » •

ومشيا ببطء حتى بلغا أول كوخ فقرع ذهني الباب ٠
لم يرد احد ٠ قرع مرة اخرى اقوى من المرة الاولى ٠
اجاب صوت واهن من الداخل « مين » قال افتحي :
اني أريد قليلا من الماء ٠ وبعد قليل فتح الباب وخرجت
امرأة عليها اسمال بالية ، ولكنها باسمة مرحة كأنهـا
تعودت هذا الفقر فلم يعد جديدا عليها ، وكان الكوخ
مظلما ، فأوقدت المرأة مصباحا صغيرا باليا ، فرأى ذهني
خمسة أشباح هزيلة حول « حلة » كبيرة كانوا يغترفون
شيئا من الحلة ، لعله ماء ، انه لا يدري اذ لم يكن فيه
رائحة الطعام ٠٠

أوقفوا « الآلات » التي كانوا يغترفون بها الزاد ،
ووقفوا في ذعر وخوف فأشار ذهني بيده اشارة مطمئنة
سألت المرأة : « هل معك احد ؟ لا تخف اننا نعـرف
حقوق الضيف !٠ قالت ذلك وضحكت ضحكة طويلـة
مرحة ٠ ثم تقدمت نحو الباب قائلة لنيني « تفضلي »
فترددت أولا ثم قبلت عندما أشار لها ذهني ٠٠ ولكنها
ما ان وجدت نفسها داخل الكوخ حتى سبـق عندهـا
الاشمئزاز أي عاطفة اخرى ، سبقت ارستقراطية الغنى
احساس الرحمة أو الشفقة ، وهمت بالخروج فقدمت
لها المرأة قطعة من الخشب تصلح للجلوس قائلة «اقعدي»

فقعدت • نسي ذهني فجأة ما هو قادم بشأنه وأخذ ينهال على المرأة بالاسئلة ، أسئلة الباحث الاجتماعي التي تكرهها نيني وتمقتها • قال موجها أسئلته للمرأة : « ماذا يأكل أولادك » قالت « شوربة » قال أي شوربة قالت « شوربة عضم » انها أيسر شيء يمكن الحصول عليه ••• ثم قالت ومع ذلك فنحن نضطر حتى لسرقة العظام البالية وضحكت ضحكة فيها سخرية لاذعة •

قال ذهني « وأولادك ؟ لماذا هم في هاته الحال • ان اجسامهم هزيلة • قالت الحمى يا سيدي ألا ترى البلدة خالية ، فقد كان بها ناس والان ليس بها أحد » •

قال أين زوجك : « قالت على بعد خطوات من هنا ، عمله ان يحرس طلمبة الماء القريبة • فعليك ان تذهب اليه اذا أردت شيئا من الماء • ويمكنك ان تترك السيدة هنا » •

قال وقد اطمأن قليلا « حسنا وخرج ليعود بالماء • نظرت المرأة بشراهة الى يدي نيني وقد لمعت فيها الحلى على ضوء المصابيح قائلة « خواتم جميلة » ثم مدت يدها الخشنة نحو اليد البضة الناعمة فقبضت عليها بقسوة « وقالت » اياك ان تصرخي نحن وحدنا هنا هاتي الخواتم»

فخلعتها وقالت « والمحفظة » سلمتها نيني اياها مرغمة ففتحتها المرأة وقلبت ما بها فرحة ثم افرغت ما بهـا للاطفال فأخذوا يلعبون بمحتوياتها فرحين • قالـت المرأة ما اجمل المعطف الذي تلبسين فخلعته نيني بغير مجادلة •

قالت المرأة وقد مدت قدمين عاريتين « ما اجمـل الحذاء الذي تلبسين » وبغير تردد اخذت تفك رباطه •• ثم قالت وشرابك ما أروعه ، اني لو بعته أضمن قوت اطفالي شهرا ، وأخذت تنزعه ••• فوقفت نيني شبـه عارية وهي تهم بالصياح اذ خرجت منها كلمة « دهني » مبحوحة خافتة •••

قالت المرأة « ان البندقية مع زوجي ! » فارتمت نيني على قطعة الخشب متهالكة ، وفي بالها ما طالما جرى من الجدل بينها وبين ذهني عن أمر هذه الطبقات الفقيرة كانت تصيح به انهم لصوص بالفطرة ، فيصيح بها بل بالضرورة يا نيني •••

اختلطت برأسها الان كل هذه المعاني وأخـذ رأسها يدور ، وأحست باغماء ، واذا بالباب يفتح ، وقد جـاء ذهني عاريا تقريبا ، حافي القدمين ، صامتا مطرقا ،

وهو يحمل صفيحة بها ماء ، وفي أثره زوج المرأة وهو يشبه ذئبا جائعا وقد حمل البندقية ومشى في اثر ذهني ٠

ارتمت نيني على صدر خطيبها باكية ، فضغط على يدها ليسكتها ، واستدار الجميع راجعين ، والخفير يدلهم على الطريق ، والحجارة والحصى تمزق قدمي نيني الناعمتين حتى بلغا السيارة ٠ فوضع ذهني بها الماء وانطلق هاربا كمن يفلت من براثن موت محقق ٠

لا يدري ذهني كيف عاد الى القاهرة ، وانما يذكر انه وقف عند باب عيادتي ٠ وصعد بهذا المنظر المرعب وهو يكاد يكون عاريا تقريبا ٠

فنزلنا نحو السيارة وعدت بالخطيبة المسكينة وهي بين الحياة والموت فلما حصلت لهما على ما أستطيع من الثياب ، وبذلت ما استطيع من المجهود لانفخ فيهما الحياة والقوة ٠ صاحت نيني « شفت يا ذهني أصدقاءك ايها الباحث الاجتماعي ٠٠٠ شفت ضحايا الفقر » ٠

قال ذهني

بل هذا درس تعلمته يا نيني ٠ اذ لولا الفقر والجهل

ما سرقوا ولا أجرموا . بعد ايام التقيت بغادة حسناء تقف في انتظار القطار بطنطا ، وهي ترتدي ثياب الهلال الاحمر تلبية لنداء الوطن فاذا هي نيني ...

من مذكرات طبيب

مرة اخرى احاول ان أكتب مذكرات صريحة من نفسي لنفسي مذكرات أكون فيها أشد أمانة من روسو وأصرح من ببيس ، مـرة أخـرى ولعلـي لا أمزقها كما فعلت بمذكراتي السابقة ..

قسوة بالغة أن أنفذ الى صميم روحي ، مسجلا عيوبها ذاكرا مواضع الضعف فيها . وعذاب شنيع أن أجردها من الغرور وأمسح عن وجهها الطلاء الذي يكسوه قسوة وعذاب ذلك التسجيل وان يكن بيني وبين نفسي . وما حاجتي اليه؟ أتحليل لصباي وشبابـي ؟ أتتبع لذلك الخيط العجيب الذي أسميه حياتي ، وقد أخذ يتضاءل ويضعف حتـى صار كالخيط الذي يتدلى عليه العنكبوت ؟ أو ذلك سبر لغور انفعالاتي ووجداني وهي لا تخرج عن كونها آدمية

كما هي في الآخرين .. وماذا تكون خلاصة ذلك التحليل والتسجيل ؟ أحببت وفقدت كما يقول الانجليز كسبت مالا ثم خسرته ؟ كسبت أصحابا واحتضنت مودتهم ثم تنكروا وسلوتهم ؟

كل هذا قيل وأعيد .. ومع ذلك فهأنذا أرجع الى ذلك المكرر المعاد ؟ أرجع اليه والا كدت اختنق . أريد أن أتنفس ، أريد أن أفتح النوافذ . أريد أن أنظر الى موكب الحياة منها . ولو نظرة المودع المحتضر .

(٢ ديسمبر)

دعيت الى منزل ... باشا ، لا أدري لماذا لم أطمئن الى تلك الزيارة . اني على العموم لا أحب أن أزور منازل الاغنياء . ولا أفرح للمال الذي يبذلونه لي . احب أن ألبي دعوة الفقراء احب أن أغشي منازلهم وأعود فقيرا مثلهم ، لم ترقني دعوة منزل .. باشا ، لم يرق لي شكل الخادم وهو يهمس في أذني . لماذا يدعونني ؟ لماذا يتركون فلان الدكتور الغني ؟ أو فلان الدكتور الارستقراطي الذي يذهب اليهم في أوتمبيل (بويك) ويكلمهم من طرف أنفه؟

أردت ان أرفض . تصورت اني سأمضي من الباب الكبير الى البهو الفخم ؟ وسأمر بالاثاث الرائع سأجتاز

الدهليز المكسو بالسجاد الغالي وستعلو رأسي الثريات التي تتدلى من السقف المرتفع المنقوش بحبال كان كل حبل (كرباجا) يسخر من فكري ويجلدني ·· استقبلتني السيدة المتكبرة التي زارتني في عيادتي ذات يوم ونظرت يمينا وشمالا ثم ندمت على فعلتها وانصرفت · أردت أن أرفض·· ولكنني جائع وأولادي مساكين بليت ثيابهم ·· اردت ان ارفض ولكن خيال ابني المريض وخيال بنتي التي في أشد حاجة الى الاكل والنزهة والهواء الطلق وقفا أمامي وفي عين كل منهما دمعة تعصف بالضمير وتسب التردد وتصيح في وجه السماء ·

قلت للخادم البغيض حاضر (بعد عشر دقائق اكون عندكم) قال هامسا في خبث ورياء : الاتومبيل تحت وعايزينك حالا لان دي حالة مستعجلة وعايزينك انت ضروري لان كل واحد بيقول ان في يدك البركة والست والبيه ملهمش ثقة في واحد غيرك ·

أردت أن أرفض ثانيا فوقف الخيالان وفي عين كل منهما دمعة فرأيتني أمسك كبريائي وأضعها تحت قدمي وفي لحظة ارتديت ثيابي ونزلت مع الخادم البغيض ودخلت من الباب الكبير الى البهو الفخم ومررت بالاثاث الرائع ووجدت فوق رأسي الثريات التي تجلدني حبالها ·

واستقبلتني السيدة المتكبرة وقد حاولت ان تتلطف فظهر لي رياؤها دميم الوجه مشوها • فكدت اصفعها قالت أن بنتها الكبيرة مريضة بقيء ودوخة ولا تدري لذلك سببا • وتقدمتني الى غرفة ابنتها • رأيت الابنة ممددة في السرير ابنـــة جميلـــة جمالا خارقـــا ولكن تحت عينيها البديعتين ظـــلالا كثيرة ووقفت جنب سريرها سيدتان احداهن سمراء لها سحنة الغراب والثانية ترتدي السواد ولها شكل فانتوماس لم اطمئن الى سحنة الغراب ولا الى طلعة فانتوماس •• كانت الاولى تشعر بالوداع والثانية تشعر بالجريمة حاولت أن أبدو بمظهر كبير فتساميت ونظرت للجميع كأني أنظر من أعلى • وجلست بهدوء بجانب السرير •

وأخذت أحادث المريضة ثم قمت بفحصها • مـــن أول لحظة حاولت ان تضللني مع انها تعرف اني فهمت أمرها من عينيها • لا بل من همسة الخادم لي في العيـــادة • وتعرف اني سألتها توا بيني وبينها سؤالا في الصميم كما يسأل المتهم ليؤخذ من كل جانب قالت أمها والغراب وفانتوماس في (نفس واحد) لقيت ايه يا دكتور ؟ وكن يسألن •• ولا حاجة بهن للسؤال فهن يعرفن اكثر منـــي ومن الراقدة ••• فلماذا استدعيتني ؟ لكي يزددن تأكيدا. ولماذا لم يستدعين طبيبا غيري ؟

لم يستدعين طبيبا غيري لان الحي كلــه يعرف اني على فقري احفظ السر وأحسن النصيحة · لا أدري كيف يعرف ذلك أهل الحي صغيرا وكبيرا · ولكني أوقن ان الناس لهم انوف باطنة تشتم غير مـا تشتمه الانـوف الظاهرة ·

غير ان الذي يحيرني هو هــذا ماذا تجدينــي هــده السمعة الطيبة بينما جاري الجاهل القدر الــذي يعج بالمخازي يمطر عليه الذهب حتى أكاد أسمع رنينه مــن عيادتي ؟ قلت للجميع أريد أن أخلو باحداكن فتقدمت السيدة المتكبرة فملت على أذنها قائلا : (ان البنت حبلى) صرخت في رياء «يا دهوتي» ايه الكلام ده احنا ما عندناش حاجة زي دي · دي عيلة شريفة يا دكتور ؟ قلت في حزم (البنت حبلــى) قالت في قحــة (دنته حكيم أمراض باطنية · وايش عرفــك في الستــات · قلت في حزم (البنت حبلى) فارتاعت من اصراري ، وازدادت قحة · وقالت عند الكشف يمكن التشخيص غلط (ولا نبعت لفلان ـ حكيم الستات !) قلت وقد فرغ صبري (كــان يجب ان تحضريه مــن الاول اذا لم يكــن لكم ثقة بي) وشعرت بعرق الخجل يقطر من جبيني · وخطر لي ان انصرف واترك أجري اذ لا حاجة لي بمال هؤلاء الكلاب ·

خطر لي ان اهجم على اليد التي رأيت فيها الجنيه · لا لآخذه بل لامزقه ولكن فجأة وقف الخيالان الصغيران وفي عين كل منهما دمعة · فتناولت اجري مرغما · وهرولت منصرفا من ذلك الجحيم ·

(٣ ديسمبر)

هذا يوم فظيع · قضيته كله تقريبا أنظر من نافذة العيادة لم يغظني غير « الجزمجي » الذي يشتغل في حذاء واحد منذ ثلاثة أيام · انه يدفع في النعل مسمارا ثم ينام فلا يستقيظ الا حين يأتي من يوقظه · وذلك الصيدلي العجوز الذي يقضي في تركيب « البلابيع » ساعتين حتى مل « الزبون » ونام على الكرسي ··· كل يوم لا أرى غير « الجزمجي » و « الصيدلي » وحركة الترام الذي يحمل قوما أراهم بعينهم كل يوم منصرفين عن منازلهم أو راجعين اليها ··· الزمن يمر بطيئا ثقيلا « كالجزمجي » وقد هرم وأصابه الخرف « كالصيدلي » العجوز ··· والايام تنقل الناس هنا وهناك « طقم » يروح واخر يغدو كهذا الترام السخيف·

جاءني التمرجي وأخبرني ان زائرا « دفع الكشف » ويريد الدخول · دخل الزائر · شاب وجيه ممشوق

القوام ، متكبر ، يبتسم بتكلف شعرت باحساس غريب يخبرني ان لهذا الشخص علاقة بالعائلة التي زرتها منذ بضعة ايام ، واحساس اخر اغرب يخبرني ايضا ان تلك البنت حبلى من ذلك الشاب ٠

لم يكد يجلس حتى بدأته انا القول ، كان بي سأم وفي فمي مرارة ، والسأم والمرارة يرفضان التطويل ٠ قلت في الحال : أظن حضرتك من عائلة ٠٠٠ ب ٠٠٠ فارتجف كأنما يجلس على لغم ولم يستطع ان ينكر ٠ فأجلسته على اللغم الثاني ٠٠٠ وقلت : « أزاي البنت المريضة ان شاء الله تكون صحتها دلوقتي أحسن ؟ فارتجف ثانية وقال بشكل ميكانيكي « ايوه أحسن » ٠٠ ولكن عاوزينك في حكاية فأجلسته على اللغم الثالث وقلت « لا أجهض الحوامل » فقال الشيطان « اطلب اللي انت عاوزه » فهممت بالرفض فوقف الخيالان الصغيران وفي عين كل منهما دمعة ٠ كان الاول يبدو جائعا هزيلا٠ والثاني عاريا يرتجف فرأيتني أمسك كبريائي وأضعها تحت قدمي وقلت « طيب كام تدفعوا ٠٠٠ لا اقبل أقل من خمسين جنيها » فمد يده الى محفظته وأخرج منها ورقة واحدة بخمسين جنيها فحملقت في الورقة ورأيت بعين الخيال زوجتي ترتدي ثوبا أنيقا ، وابني في يده

لعبة ، وابنتي تأكل وقد سمنت وصار وجهها بديعـا فأخذت الاوراق صامتا وقلت « في العيادة غدا فـي الليل بعد انصراف المرضى ـ فابتسم الكلب وضحـك ضحكة النذل انتهت مشكلته ، وضحكت ضحكة المجرم شاء ان يشترك في العار ٠

(٤ ديسمبر)

لم أنم ليلة أمس ٠ معي خمسون جنيها تريحني من النحس حينا ما ٠ تريحني من انتظار الزبائن الذين لا يجيئون وترحمني من استجداء القدر ٠ ان يدي التـي أمدها للزمن كالشحاذ تصلبت وقد آن لها ان تليـن قليلا وتصير كأيدي الناس ؟ ولكن ماذا يجعلني اتقلب من جنب الى جنب وتسألني زوجتي فأنكر ٠ ويضحك لي ابني بوجهه الناضر البريء ويمسح رأسه الصغير في صدري فلا أستطيع تقبيله ٠٠ الا ليلة واحدة أطعن فيها الضمير وأقتله ؟ ليلة واحدة أبيت كهؤلاء الذين خلت رؤوسهم من ذلك الشبح ، واستقر فيها الهدوء ولو كان هدوءا كسكون المقابر ٠ هذا يوم فظيع ايضا ٠ كل شيء هادىء في الميدان الغربي ؟ ولكن العدو سيزحف بعد حين ٠ ها هو المساء قد جاء ٠ وها هو التمرجـي يجهز الآلات لعملية الاجهاض اسمع صوت « الغلاية » من

حيث أكتب هذا · وهاأنذا أسمع وقع اقدام · ها هي العائلة المباركة · تتقدمها الانسة ويتبعها الغراب وفانتوماس والسيدة المتكبرة ···

(٥ ديسمبر)

لم أنم في حياتي ليلة اهدأ من ليلة أمس · اذ لم يصنع أحد قبلا ما صنعت · جلست العائلة المباركة تهمس وتنتظر تجهيز العملية · وبعد قليل حضر الكلب الذي ناولني الاجر أمس كانت له سحنة الكلب تماما كان يضحك في ذلة وخيل لي ان له ذنبا يتحرك · اما المريضة فقد كانت تتأوه تأوها مصطنعا · والغراب وفانتوماس يهدئانها بالتناوب · تم الاستعداد وقد نام ضمير الطبيب اربعا وعشرين ساعة تماما ولم يستيقظ بعد · لا أدري ما حدث بالضبط · وجدت نفسي اتناول كرسيا اضرب به الكلب وأطرده · وأضع له في جيبه الخمسين جنيها ، ورأيتني أطرد عائلة الباشا وألقى بهم في الشارع كوحش ثائر ·· لا أدري كيف حدث ذلك ، وانما أؤكد ان الضمير وقف فجأة كرجل · ومد يدا متشنجة تقبض على حلقي · وقف فجأة وأنا أهم بالجريمة · ومضيت الى منزلي جائعا ·· واحتضنت أولادي الجياع · ونمت اهدأ ليلة قضيتها في حياتي ؟·

قاهر النساء

عرفت ممدوح أفندي سنة ١٩١٠ ٠

ولن أنسى ما حييت وجهه البشع ، ولا أنفه الغليظ ولا وجهه الذي انتشرت فيه بقع الجدري ، ولن أنسى ما حييت اناقته الممتازة لقد كان كل يوم يغير رباط عنقه ، ومناديله الحريرية ، اقول مناديله لانه كان يحمل واحدا في كمه واخر في جيب جاكتته من اعلى واخر لاستعماله العادي كانت تتغير كلها كل يوم ، كما كانت تتغير البذلة ، وكما كانت تتغير العصا ، فهذه بمقبض ذهبي وهذه برأس فرس ، وهذه منقوش عليها اسمه م٠م٠ بماء الذهب ٠

وهكذا كان صديقنا مزهوا بنفسه الى اخر حدود الزهو والغرور ، يخرج كل يوم ليتمشى على شاطىء النيل ، لا بل الاصح ليعرض هذا المتحف العجيب المتبدل

لتتغير كل يوم ولقد كانت الشرفات تتفتح ليتفرج الناس على هذا الحيوان المزركش ، وهو يعتقد انهم يتفرجون على اجماله ورشيق قوامه ٠

وكانت له شهرة خطرة تحوم حوله ، كما يحوم الذباب الكبير ذو الطنين ، بأنه صياد نساء قادر ماكر ماهر ٠ ومن آفات هذه الشهرة انها تنتقل بالعدوى فهذه السيدة تنقلها لتلك ، وهذا الرجل ينقلها لذاك ، وكثرة التكرار تجعلها تستقر في الاذهان ومن نكد الدنيا ان ممدوح أفندي كان على شيء من اليسر ، فكان يسكن شقة جميلة مفروشة بأثاث أنيق ٠ والقد ذاع ان هذه الشقة وكر النساء اللواتي يصيدهن وان منهن ثريات ، ومنهن جميلات ارستقراطيات ، ومنهن مثقفات، ينتقلن اليه من مدن الصعيد الكبيرة ، بل بالاصح يحججن الى ذلك « الزير » الادمي !

اما كيف يصيدهن ، وكيف يتقاتلن عليه ٠ وكيف يتنازعن عليه علنا في مجتمعاتهن ، فهذا ما حير كثيرين وأولهم انا ٠ وكنت أفخر اني عالم بنفسيات النساء ، حتى التقيت بممدوح أفندي فصار يسخر مني ، ويصارحني في كلام لاذع اني جاهل تمام الجهل واني انما أتلقى العلم عن النساء من الكتب ، ويقول كان

يجب ان تستقي هذه الكتب معلوماتها من مصادرها الصحيحة ·· أي من الخبراء أمثاله ·

وكنت أقول له ساخرا بأنفه « اي امرأة تحبك ستحبك على رغم انفها ·· وأنفك » فيعبث بمناديله ويعدل رباط عنقه قائلا « انت تعتقد ان المرأة عاطفة كلها ·· وهذا ما تعلمته في علم النفس ·· وهذا اول خطأ وقعت فيه انت وأمثالك » ·

قلت اذن ما هو الصواب ؟

قال : « كيف اطلعك على أسرار المهنة · هذه مهنة · هل أستطيع أن أعلم منك أسرار مهنة الطب ؟

وسكت حتى تحين الفرصة · ولقد ظل سره مكتوما حتى وقعت الواقعة ، وتهامس الناس في جرجا عن علاقة ممدوح أفندي بزوجة موظف كبير · وان هذه السيدة المعروفة بالمحافظة والرجعية خرجت عن وقارها في احدى السهرات فضربت اخرى بكرسي كما يصنع الفتوات كل ذلك من اجل ممدوح افندي ··

اما قيمة ممدوح افندي في الحكومة فانها صفر ·

وأما قيمته في أي مجتمع رجال فصفران ·

وأما قيمته في الحياة على الاطلاق فثلاثة أصفار ·

ولقد كنا نجلس في النادي الذي أنشأناه لنسمر في المساء ، نتحدث عن هاته الشخصية الخطرة التي كادت تفسد علينا الجو العائلي والهدوء الذي يسيطر على أمكنة صعيدية عرفت بمحافظتها محافظة صارمة على سمعة نسائها • فاقترحنا جميعا ان نكتب للوزارة خطابا مجهول الامضاء ندعوها للتحقيق من هذه الاشاعات والعمل على اقصاء كل ما يضر بسمعة الموظفين •

وفعلا أصاب الخطاب ما رمينا اليه فقد اهتمت الوزارة ، ودبرت كيف تراقبه ، فبثت العيون حوله الى أن فوجيء ذات ليلة وهوجمت الشقة التي يسكنها ، فلم يكن عنده امرأة واحدة بل ثلاث نساء ، محترمات وقد جلس بينهن والخمر آخذة منه ومنهن مأخذها ، وقد احتللن هذه الشقة بغير تكلف ، وجعلن منها مكانا يبدو عليه انه الف مجيئهن كثيرا •

ولكن كيف جئن وكيف تحايلن على ترك أزواجهن من اجل ذلك الوغد ، هذا هو السر المحير •

عندما فوجيء بالبوليس ، وقف يتحايل تحايل المخمور ، وولول النسوة وحاولن الاختباء ، فلم يستطعن وقضين الليلة في المركز ، وطلقن في الصباح ، وترك أزواجهن البلدة في اليوم التالي أو الذي بعده على الاكثر

هجروا البلدة فرارا من كلام أهلها • فقد كثر اللغط ودارت الاحاديث ، وكان الرجال يضربون كفا على كف ويقولون « زوجة فلان •• » وكان النساء يتهامسن في خوف ورهبة ويقلن ان « سره باتع » !

رفت ممدوح افندي بالتلغـراف ولم يثـر أي زوج قضية ضده ، حرصا على « عدم البهدلة » وان كانوا أعدوا العدة ـ كأهل الصعيد لذبحه ذبح الشاة ـ

اما هو فتقبل أمر الرفت كما يتقبل الانسان شيئا يكدره قليلا ، اولا لانه كان غنيا ، وثانيا لانه كان قصير النظر ، وثالثا لانه كان مغرورا ، ورابعا لانه في بسطة من العيش •

كنت أجلس ذات مساء في سولت بعد الحادثة الاولى ببضع سنوات • فلفت نظري حيوان مزركش يعبـر شارع فؤاد ، فقمت لفوري وجريت خلفه ، انه ممدوح افندي هو بعينه ما أشبه شوقي لمعرفة سر هذا القاهر للنساء ، ذلك الادمي البشع •

آه انه يشير في الناحية الثانية من الطريق لحسناء شقراء لا تقع العين على أجمل منها ! من يا ترى تكون هذه ؟ زوجة من ؟ أخت من ؟ بنت من ؟ دارت الدنيـا

برأسي وأنا أتذكر الفضيحة التي سببها للزوجات المنكودات منذ سنوات ، وأذكر ان احداهن انتحرت بالغاز ، والثانية ألقت بنفسها في النيل والثالثة قتلها أهلها ، وها هو ذلك الوغد لا يزال يصيد أجمل النساء .

يا لله ! كم من ضحايا لذلك الغول ! ولاي سبب ؟ ليس جميلا ، ولا ذكيا ، ولا مثقفا . انما هو كتلة ثياب مزركشة ملونة ، ومعرض مناديل ، ومتحف يسير في الشوارع ..

جريت نحوه وهو يسير الى الحسناء في الطرف الاخر من الطريق وأدركته وأمسكته من ثيابه قائلا « ممدوح افندي » .

صاح « أهلا أهلا » وعانقني بحرارة وشوق .

قلت أنا مشتاق اليك تعال لنتناول شيئا معي في « سولت » .

قال لا بأس اسبقني وسأحضر صاحبتي هذه ـ وأشار اليها ـ اليك بعد قليل !

وبعد قليل كان معي في سولت فجلسنا . ممدوح وصاحبته وأنا نتحدث وكنت أحدق فيه وفيها لاعرف سر اعجابها به . لقد كانت تحدق فيه كأنها ترى معبودا

فخما ٠٠ فقلت لا بد من انتزاع سره الان ، فأخـذت أسقيه الكأس بعد الكأس ،ولكنها كانت حريصة وكانت تحذره من الافراط في الشراب فلم يبال بتحذيرهـا واندفع يشرب ٠

ثم أخذ يثرثر ويبدي الزهو والغرور ، وقال لي على جانب في معرض الاعجاب بنفسه : انت فاكر لما حبيت تعرف أسراري ، طيب أهو أنت طبيب ، وفي شبابك ومركزك كويس ، رايح اسبلك صاحبتي هذه الليلة فاذا كسبتها فاني سأستقيل من مملكة النساء ٠

ثم قهقه ضاحكا وقال ٠٠ « وريني شطارتك » غير ان المرأة بعد قليل لم يرقها أن تراه في هذا الشكل المبتذل وخاصة لاننا أخذنا نتناول بعض الطعام ، فكان يضع أصابعه في فمه على سبيل الفكاهة ، فلم تعجبها هذه الفكاهة واستأذنت وقامت لتنصرف فحاول أن يمنعها وهو يتلجلج في الكلام فخرجت غاضبة ٠

بعد أن خرجت قال لي « دى مجنونة بكره ترجع زي الكلبة ٠ ثم التفت الي شارحا وجوه المسألة قائـلا « الحكاية مش حكاية جمال ولا ذكاء ولا حلم زي ما انت فاكر ٠٠ الحكاية ثلاثة أسطر ٠

السطر الاول أن تضع كل مواهبك ووقتك ومالـك وتصرفاتك رهن اشارة المرأة التي تصوب سهمك نحوها ٠٠ هل تستطيع أيها الطبيب أن تترك مرضاك جميعـا من أجل ساعة واحدة لتشتري لسيدة شيئا تافها مـن شيكوريل او شملا ٠٠ بالطبع لا ٠٠ هاها ٠٠ محسوبك يستطيع ٠

السطر الثاني أن تكون قويا جدا لدرجة تقرب من الوقاحة ٠ أنت جنتلمان يا دكتور ٠٠ احساسك يجرح بسرعة ٠٠ هاها اما انا وأشار الى وجهه فوجهي لو تكلم لقال انه مكون من اللطمات ٠٠ هاها ٠

والسطر الثالث ان تعلم ان دنيا المرأة دنيا صغيرة مكونة من أشياء لا يصغي اليها ولا يهتم بهـا العظمـاء امثالك ٠٠ هل تكلف نفسك مؤونة البحث عن مقص خياطة مثلا شكله كذا في كل محلات مصر ٠٠ محسوبك يمكنه ٠٠ هاها !

ثم امسك بذراعي قائلا : انت رجل عاطفي وأنا أعلم ان لك قصة حب واحدة هجرتك فيها حبيبتك بدون ذنب ٠٠ انا اعلم لماذا ٠٠ هاها ٠

حاولت ان احتج ، فأخذ عصاته المذهبة وخرج يترنح في الطريق ٠

قلت في نفسي كلا المرأة شيء فوق ذلك . المرأة مخلوق ملائكي شاعري حساس كيف يريد ان يصورها ذلك الذئب كمخلوق كله طين محض ؟ غير ان الخيبة التي منيت بها في حبي عاودتني بكل فجيعتها فصاح هاتف في نفسي « من يدري » .

بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ كنت أمارس مهنتي في عيادة بالعتبة الخضراء ، فدعيت لعيـادة مريض بلوكاندة قريبة .

ولم يكن ذلك المريض غير ممدوح افندي !

أدركه الشيب وطغى عليه المرض ، وهدمه الفقر ، فلقد نظرت الى سترته المعلقة ، فاذا بها تيل رخيص ، والى رباط عنقه المثبت بمسمار في الحائط فاذا به لا يزيد في الثمن عن خمسة قروش ...

ملت عليه في لهفة واشفاق قائلا « ممدوح افندي »

فتح عينيه بضعف واعياء قائلا « دكتور » .

قلت « نعم » « ماذا بك اشرح لي مم تشكو »

قال « لا فائدة » اني ما دعوتك لتداويني فقد فات الاوان ، وانما لاكمل لك الفصل الاخير من رواية المرأة كما قصصتها عليك .. : اسمع ان النساء اللواتي عرفتهن

في حياتي وحسبتهن يمثلن المرأة كن جميعا يمثلن طبقة سطحية يمكن لقاهر النساء ان يتغلب عليها وبقي صنف لم أكن أعرفه ، وقد عرفته في مرضي هذا ذلك هـو الصنف الممتلىء بالحنان والعطف الخالص ، ذلك هو الصنف الذي يلقي على الانسان الدرس الاسمـى في الفضيلة ويريه بشاعة الرذيلة •

وفتح الباب ودخلت سيدة شاحبة الوجه عليها دلائل الطيبة والوقار وهي تحمل طاقة من الورد •

قال ملتفتا اليها « هذه هي المرأة الوحيدة التي بدلت نواحي تفكيري •

ولكن واأسفاه فات الاوان ثم أطبق عينيه وراح في غيبوبة طويلة •

أحلام الموتى

كنت عائدا من انجلترا بعد ان انتهت مدة البعثة التي قررتها لي وزارة المعارف ، وكنت قد حصلت كل الشهادات التي كان علي أن أظفر بها هناك • غير انه حدث قبل رحيلي عن لندن بيوم واحد ـ أعني في الميعاد المقرر لسفري ـ ان صدمتني سيارة كانت تسير مسرعة ، طرحتني أرضا ، ثم رجعت أدراجها فمرت علي مرة أخرى •• في المرة الاولى أحسست ان عالما بحاله كنت احمله في خاطري قد تبخر وتلاشى ، وفي المرة الثانية أحسست ان هذا العالم تطاير شظايا واستحال زجاجا متطايرا ورأيت الناس يتزاحمون ، وجندي بوليس يقف فوق رأسي ، قلت له : أين أنا ؟ ثم رحت في غيبوبة •

أفقت قليلا في المستشفى ، لا بل أفاق شخص اخر •

كان يختلف تماما عني • شخص أثيري يرى ويطوف ويعلم ويجوب البلاد • شخص يمر بالعنبر « عنبر » المرضى ويتفحص وجوه الاطباء ، ثم يطير الى القاهرة فيخبر أهلي واحدا واحدا أني على وشك الموت ، ثم يذهب الى باريس ليقول لصديق عزيز لي وهو طبيب مشهور ، ان اسرع الى لندن لانقاذ صديقك •• ثم يعود بعد هذه الرحلة ليتفرس في الاطباء الذين اجتمعوا حولي ليتبين في وجوههم اثرا من آثار التفاؤل فـلا يرى ، فيعود ليمر كالنسيم على الجسد المسجـى اللاصـق بالسرير ، بالمادة ، بالدنيا ، الجزء الذي هو لحم ودم •

لم يكن لجزئي الثاني من عمل طول تلك الليلة الا أن يذهب ويعود وقد ذهب ليرى من من أطباء لندن يمكنه أن يعودني غير هؤلاء البائسين المضطربين وقـد شعر الجسم امـا الجزء المعلوق من طين فقد سمع بأذنه البشرية همسـا او استغاثة بين جزئي وبين هذا الطبيب الذي قام مـن نومه فارتدى ثيابه • فأجاب على التليفـون قائلا : انه قادم على عجل ، وانه لا يجد سيارتـه ، فهو قادم على دراجة ابنه •

وفي شبه حلم من احلام الفسق رأيت شفقا عجيبا ، وفي ضبابه اقبل انسان رحب به الجميـع فعلمت انه

الطبيب الذي استغاث به جزئي الاثيري •وسمعته بأذني الآدمية يناقش ويشرح ويقول لهم دعوني وشأني معه • اني الوحيد الذي أشفيه • وشعر الطين المسمى بآدمي ، بيد رقيقة تمر عليه وترم عظامه وتعيد الهيكل المهشم قطعة قطعة لما كان عليه ، وشعر بذلك الجمع يتفرق ، وبالطبيب يذهب ، وبآيات اطمئنان واستحسان ثم ذهب الى عالم خفي بعيد ••

لم يتلاءم الجزءان بعد ذلك التاريخ ولم يستطيعا الاتحاد كما كان • حدث تردد بينهما وانفصال ، على ان الواحد منهما كان يحن للاخر ويناديه ، ولكن هيهات، فلقد كنت وانا في طريق الشفاء ، احس بشيء ينفلت مني ، فأضع الكتاب من يدي ، وتسترخي يداي ، وأطبق عيني وقد ذهبت في سنه ، ورأيت احلاما غريبة ودنياوات سحرية ، ومشاهدات خفية ، رأيت النجوم سرت فيها ، رأيت عالم الشمس ، رأيت سدما تخمل في الفافها اسرارا وطيوفا مدهشة ، فأذا ما حاولت ان اجمع في هذا المجد قبضة يدي انتهت السنة وعدت الى هذا العالم الممقوت • وكنت قد تولاني هزال فظيع ، وضعفت صحتي وتركت لحيتي ، فصار شبهي بالاولياء تماما ، فاذا استندت الى عكاز كان شبهي بالمساكين أتم وأكمل •

بهذه الصورة ركبت الباخرة ميلساندة التي سارت بنا صوب بور سعيد ـ على اننا ما كدنا نصل خليج سكاي ، حتى ثار البحر ثورة عنيفة ٠

وقامت عاصفة لا عهد لراكبي البحر بها !الواقع ان العاصفة كانت اعصارا مجنونا ، جعل المركب الهائلة كريشة صغيرة ، ووضعت في كل مكان لافتة مكتوب بها « خطر » ٠

اخذ الركاب يتضامون في خوف وقلق وقد جمع بينهم والف بين اجسامهم وقلوبهم المصير المتوقع ٠ اما انا فقد حال ضعفي دون الحركة ٠ فجلست على مقعد وتمددت في هدوء ، فجعل الاخرون ينظرون الي كمثل اعلى للشجاعة الخارقة ، وقد كان من الذين تعرفت بهم على ظهر المركب قسيس عظيم اللحية ابصرته مستندا الى حاجز الباخرة وهو يمسك لحيته بيد وقلبه بالاخرى ، يتمتم بصلاة ، فمنذ ابصرني صدرت منه صيحة اعجاب، ودنا مني قائلا : ما اشجعك ، وما اقوى ايمانك ، ثم انصرف عني وهو قد جدد هدوء جأشه ، ودار بالناس يبث فيهم الثقة والطمأنينة ٠

دار الاعصار من جديد بعد ان هدأ قليلا واخذ المركب يترنح بين يدي الموت ، فسمعت صرخة بالقرب مني ،

والتفت فاذا بالفتاة جلاديس التي تعرفت بها على ظهر المركب تصرخ ويغمى عليها • وأسرع اليها خطيبها الذي كان يبحث عنها في كل مكان فاحتملها بين ذراعيه •

قمت متثاقلا من الضعف وتبعته الى غرفتها ، افهمته اني سأقوم باسعافها بمالي من المعرفة الطبية • ولم انتظر رده بل اسرعت الى غرفتي وحملت حقيبتي واخذت في اسعاف الفتاة •

فتحت عينيها وحدقت في قائلة : من انت !! اني رأيتك امس عند النعش الذي يوجد امام غرفة القبطان •• لا تنكر ! لقد رأيتك امس بالبيجاما الساعة الرابعة صباحا • مررت بيدي على جبيني لاتذكر لعلني اهتدي فلم استطع ، فقلت لها متى ؟! اني طبيب يا سيدتي وهذه احلام سوداء من اثر الوقت العصيب الذي نمر به • صاحت بغضب : كلا كلا ! انت هو لقد عرفت من لحيتك انك ساحر جبار • ان عينيك وعكازاتك وثيابك الواسعة تجعلني لا اشك فيما اقول : لقد كنت امس عند جثة الميت !

سألتها بدوري : وانت ماذا جاء بك الى هنا ؟ قالت : ان روحي لتفارقني احيانا ولم تكمل بل صرخت صرخة مفزعة واطبقت عينيها وهي تقول لي اذهب اذهب ! »

قال لي خطيبها محتدا « انت احدثت لها هذا الفزع اذهب يا سيدي ارجوك » فذهبت مرغما وانا افكر في هذه الفتاة التي تشبهني في السفر الروحي الذي صار يعاودني عن وقت لاخر • من يدري ربما عاودني وانا نائم فقمت من النعش الذي تذكره جلاديس الكائن امام غرفة القبطان •

هدأ الاعصار واجتزنا خليج بسكاي ، وعاد الركاب الى مرحهم وانسهم ، واقيمت حفلة راقصة على ظهر المركب ، فأخذت اشهد الراقصين والراقصات من ركن متوار ، اذ لم تكن لي قدرة على الاشتراك معهم لضعفي • فماذا ارى ؟ رأيت جلاديس تترك خطيبها الذي كان يراقصها ــ تتركه فجأة وتمشي كالمنومة وهي تبحث عن شيء او شخص •• ! حتى اذا مشت نحوي ، وقفت فجأة وقد صاحت برعب : « انت هنا » قلت : نعم يا سيدتي وماذا يزعجك ؟! قالت : يزعجني ان اراك في هذا الركن المظلم وقد ارسلت بريق عينيك يخترق كل هذه الاسداد والحجب ! ثم اردفت قائلة : من انت ؟ من انت ؟ قلت : اني طبيب يا سيدتي • قالت : انت كاذب • لماذا تظهر في نومي وتطاردني وتلاقيني حينما اتجهت روحي • قلت متعجبا : هذه احلام يا سيدتي !! قالت محتدة : بل

حقائق ، اتركني يا سيدي لخطيبي اني سأقضي معه شهر العسل فلا تفسد علينا هناءنا • قلت : معذرة يا سيدتي انا لا اعلم من انت لا اعلم الا اسمك الذي يناديك بـه خطيبك • ولا تأثير لي عليك • وليس بيننا صلة الا هذا السفر الروحي الذي تصغينه • انه يحدث لي من حين لحين •

قالت مرتاعة : (وأين تسافر ؟) قلت : بين النجوم، في الشمس ، في الضباب •

قالت : ونا ايضا •• متى سافرت آخر مرة ؟ قلت : منذ يومين •• كنت في المريخ •

قالت بفزع : « وأنا ايضا كنت هناك يا لها من مصادفة » ثم اقتربت مني وحدقت في عيني ، وأمسكت بذراعي بعنف قائلة : قم بنا ، قلت : الى اين ؟ قالت : الى اي خلوة اجدك فيها ، بعيدا عن الناس • فلبيت طلبها ، وخفت ان يرانا خطيبها فسألتها عنه فقالت : «انه مخمور ونائم نوم اهل الكهف » •

كان الليل قد تجاوز النصف،وابتدأ الراقصون ينفضون وينزلون الى مضاجعهم واستندنا معا جلاديس وأنا ـ الى حاجز الباخرة نحدق في اللانهاية وكل منا يحاول الحديث فلا يستطيع •

اخيرا تكلمت هي قائلة : (ماذا صنعــت بي) ثــم استطردت قائلة : (أنت نصفي الثاني في جسم رجل) ثم اخذت تبكي بعنف وارتمت بين ذراعي وهي تتشنج بقوة ، فطوقتها ، وانا لا ادري هل نحن جسمان يتحدان ليكمل احدهما الاخر ، ام يلتقيان ليتصارعا ؟ لقد كان التفاهم تاما . جعلني أؤمن بما قالت ، وان كنــت قد ساورني الشك في حقيقة كل ذلك . وحسبت انها احلام موتى ، لا عواطف احياء .. لا وربي ، لم تكن احلام موتى فقد لبثت جلاديس ورأسها على كتفي حتى رأينا الفجر يطلع على مدينة قريبة : فأفاقت قائلة : « جبل طارق » وما انسى في حياتي النظرة المسكينة التي ودعتني بها ، وهي تتخلص من ذراعي ، وقولها لــي وداعا يا نصــف روحي الغالي .

صفحة غرام

جلس المهندس سيد فخري امام مائدة في القهوة الكائنة تجاه « محطة المترو » بشارع عماد الدين وصفق يدعو الجرسون :

ـ اديني واحد متريو

فأجاب خريستو من بعيد بلهجته المطوطة :

ـ حادر

اخرج فخري علبة سجايره واشعل سيجارة فلم يكد يتناولها حتى جاء البويجي

ـ امسح يا بيه

فصاح فخري افندي بغضب : لا

فانصرف البويجي وابتدأ فخري يقلب صفحات الكتاب فجاء بويجي اخر

ـ امسح يابيه

(بغضب زائد) لا يا سيدي

انصرف البويجي وعاد فخري يقلب صفحات الكتاب فجاء بائع اليانصيب

ـ ورقة بمئة جنيه ؟

ـ مش عاوز

ـ ورقة بمئة جنيه • وحياتك يابيه اخر ورقة

ـ قلت لك مش عاوز اما غريبة

وجاء الجرسون بالقهوة فسأله فخري افندي

ـ الاستاذ علي خليل مجاش النهارده

ـ لسه ما جاش يا بيه

كان بطل قصتنا فخري افندي مهندسا له تاريخ غريب ، تاريخ عادي لانه يحدث في مصر وغير عادي لانه اليوم مهندس ،قضى في مدرسة الطب ردحا من الزمن ثم ذهب الى المعلمين سنة ، ثم انتسب الى الحقوق سنة اخرى واخيرا ذهب الى المهندسخانة لكنه لا يميل الى الادب ، والشعر والفلسفة ، ويحمد الله على انه يشتغل مهندسا في الري « حتى لا يموت من الجوع كأديب ؟ » •

كان السبب الوحيد لدخوله الطب ترتيبه المتقدم في البكالوريا وكان كثيرا ما يسأل نفسه ويعجب • كيف

يكون هذا هو المبرر الوحيد لدخوله الطب · ويلعن في سره هذا النظام البالي ويرى ان دراسة الطب يجب ان تقتصر على أبناء الاسر الطيبة « الشبعانة » لان هذه مهنة « عايزة اصل وعين مليانة » ·

نعم كان فخري من عائلة طيبة · حين تقدم الى مدرسة الطب تعرف الى متقدم اخر · فأخذا يتحدثان على انفراد ، فاذا بهذا المتقدم يحدثه عن الكسب المنتظر والمال الذي ستدره المهنة ! وهو لما يزل عند باب المدرسة، لم يعرف هل تقبله أم لا ؟ وكان هذا المتحدث بالي الثياب · نحيل الجسم يبدو على وجهه الشاحب اثر الليالي الساهرة في التحصيل والفول والطعمية والسلطة والطرشي والمسكن الذي لم تدخله الشمس والفراش الذي يعج بالبراغيث والبق ·

ومن العجيب انهما قبلا معا وتزاملا ، وفي مدرسة الطب لا بد من التزامل · لا بد من شريك في المشرحة· أنت تقرأ وهو يشرح أو العكس ·

على ان التشريح يبدأ عادة بالعظام · فاستشار فخري زميله في الحصول على مجموعة عظام فأجابه صاحبه بأنه يمكن الحصول على ذلك من الجبل · انها حقيقة تكون قذرة · لكنه رأى فراش المدرسة يغليها

في الماء الساخن والبوتاسا فتعود نظيفة كعظام الهيكل الموجود بالمشرحة •

وكانت رحلة الى الجبل صاحب يحمل حقيبته ويمني نفسه بمجموعة كاملة من العظام الواضحة المعالم الجيدة النتوء •

وكان كل منهما قد استحضر عصا حديدية ليجيد بها نكش الرمال الهادئة واقلاق العظام المستكنة في أمكنتها طوال السنين •

أخذا يجمعان العظام والشمس تضرب في وجههما • وتجعل مجموعة ذلك التل المحشو بالهياكل بعضها كامل• وبعضها بددته الايدي أو الوحوش ولكنها كانت في يوم ما مليئة بالحياة مثلنا تمرح في مثل مدنيتنا ومدينتنا ، لفحت الشمس وجههما وأحس فخري بتعب• وبالحاجة الى العودة • ولكن زميله كان جشعا لا يشعر بالتعب • ولا يكتفي الا بحقيبة ملأها بعدة هياكل ينوي ان يبيعها بلا شك • وأخيرا رجعا ادراجهما • وكانت الشمس تغرب على التلال الساكنة وتنصرف دامية مريضة فقد أنهكت المسكينة قواها في بعث حياة ودفه وقتل جراثيم • غربت لتستعيد هي نشاطا من الشاطىء المجهول الذي ضلت في كنهه العقول والافهام ؟

عاد فخري الى منزله بحقيبته وعصاه وقبعته ، وكان قذرا يشعر بدوار وحمى فلقيته أخته الكبرى فتحية وصاحت مشفقة وهي تجري الى الحقيبة وتفتحها « دي عضم حرام عليك وماله وسخ كده » .

ــ ده لسه عايز تنظيف قولي لعديلة تسخن ماء في حلة كبيرة وتشتري شوية بوتاسا .

ــ الميه دي لازمة لك قبل العظام علشان تستحمي ما انتش شايف نفسك .

وأخيرا هدأ فخري بعد تعب النهار وأخذ قسطه من الراحة والغذاء والنوم . وكانت عديلة الطيبة القلب قد نظفت العظام تنظيفا تاما . وأعادتها الى الحقيبة ووضعتها فوق مكتب فخري في غرفته . واستيقظ صاحبنا في منتصف الليل وقام الى الحقيبة والى كتاب التشريح فأخذ عظمة الفخذ وابتدأ يقرأ .

وفجأة سمع للعظام صوتا داخل الحقيبة فكذب سمعه وعاد يقرأ .

عاد الصوت . ففتح الحقيبة فاذا العظام ساكنة فاغلقها ثانية لم يدر ما حل به . فشعر بتعب وسقطت عظمة الفخذ من يده وأطرق على المكتب في نوم عميق

وشخير غير مألوف يذكر فخري تلك المدينة ولا ينساها.
ويلعن الطب بسببها • وكيف لا يذكر تلك الرؤيا •
حين أغفى فوق مكتبه فرأى في نومه شيخا يرتدي
جلبابا ابيض وعمامة خضراء وقد وقف عند سفح المقطم
حيث نبش فخري العظام وهو يقول : رجع العظم مطرحه
والا ما يحصلش طيب ، وكررها بصوت رهيب •
فاستيقظ فخري فجأة وهو يرتجف • ولكنه شجاع
وليس من اهل الجن وخجل من جزعه وأوهامه ، وعاد
الى القراءة فأغفى ثانية • وعاد الشيخ . ودوى في أذنه
صوته من جديد وعادت تلك الرؤيا تتكرر في الليالي
التالية كلما عاد فخري الى درس العظام حتى أصابه
شحوب شبيه بشحوب التلال التي ينبش فيها العظام •

ولما لم تعد له حيلة أعد الحقيبة ووضع العظام داخلها
ومضى الى الجبل فأعادها الى مكانها . فلم يعد الشيخ
الى الظهور بعد ذلك • ولكن فخري قد تولاه السأم وقام
في نفسه الشاعرة ضجر مبهم وفزع من الطب وبرم به
فكان يهرب من المحاضرات ويترك غرفة التشريح الفظيعة
الكريهة الرائحة الى الحدائق • الى النور والهواء الطلق •
الى حيث كانت تسير به مربيته وهو صغير وتضعه على
الحشيش الاخضر بينما هي تطرز أو تتكلم •

وكان والده قد أدرك فيه ذلك السأم الجديد ·
فنصحه وهل يجدي النصح عند نفس مستقلة التفكير·

وذات ليلة كان جالسا امام مكتبه وكان قد استعار عظاما من زميل له وأخذ يقرأ فعبر امام خياله الشيخ ذي العمامة الخضراء ، فضحك ضحكة خفيفة وقال محادثا نفسه « حكاية عجيبة » فاذا بصوت يقول « ايه الحكاية دي » فالتفت فخري الى المتكلمة فاذا بفتاة · وكانت الساعة تدق السابعة · والقدر يدق ساعته في مجاهل الغيب · نعم كان فخري يعرف الفتاة كان يعرفها قديما وهي تلميذة · وكان يعمل لها واجباتها المدرسية · ولكنها اليوم حين رجعت زائرة مع أهلها بعد احتجاب طويل · طلعت عليه في ثوب الطبيعة القوية الساحرة الخلابة طلعت عليه في الرشاقة القدسية ، والدلال البديع · طلعت عليه في كل فتنة الانثى الكاملة الناضرة وها هي تسأله : « هى ايه الحكاية دي » ·

ـ أهلا ، ليلى ·

ـ أهلا فخري · تعبان من الدروس أظن الطب متعب·

ـ لا والله انا ماليش ميل له ·

ـ طبعا لانك على ما أسمع شاعر · والشعر لا يتفق مع هذه العظام ·

ـ أهي مصر كده يا ليلى ٠٠ الشاعر يبقى حكيم ، والحكيم يبقى شاعر والمهندس يبقى صحفي ٠

ـ ولكن ما دمت مشيت في السكة دي لازم تستمر ٠

ـ مستمر بالعافية والله يا ليلى ٠

ـ إبقى خلينا نشوفك ٠ ماما وأخواتي بيسألوا عليك كتير ٠

ـ قريبا ان شاء الله أزوركم ٠

ـ بنسوار بقه لحسن ماما بتنتظرني ٠

ـ بنسوار يا ليلى ٠

وذهبت ليلى ، ليلى الجميلة ٠٠ الجميلة لا بمقياس الجمال من تناسب الملامح ونضرة الوجه ٠ بل السحر الذي لا تدرك سره ٠ وبالانيميا الخفيفة التي تعطي الوجه شكلا ملائكيا وتبعد في الحال كل تفكير في غير عادته وتقديسه ، ذهبت ليلى ٠ فأغفى فخري على نحو ما فعل يوم جلب العظام من مدافنها ولكنه الليلة لم ير الشبح بل رأى من هو أعظم من ذلك رأى ليلى في المشرحة تزامله ٠ هو يقرأ ٠ وهي تمسك بالمشرط ٠ وأخيرا التفتت اليه قائلة « أين قلبك » قال « هنا في الشمال » فأخذت المشرط ، وشقت الثياب ثم الجلد ٠ ثم العضلات وبطعنة واحدة وصلت الى تجويف الصدر ،

ثم انتزعت القلب بيدها قائلة في طرب ومرح « هيه ؟ قلبك في ايدي » . وبغضب لا مبرر له . ألقته في أرض المشرحة فتلوث ومر طالب فداسه فصاح في ألم شنيع. ثم استيقظ . استيقظ وهو يرتجف على دموع غزيرة ودوار وخوف وحيرة ـ وتلفت نحو ليلى . ليلى التي انتزعت قلبه . فوجدها قد ذهبت ...

وكان ذلك الحلم نهاية درس الطب عند فخري وبعد سعي قليل ذهب الى المعلمين فملها . ثم الى الحقـوق فضجر منها فالتحق بمدرسة الهندسة وتخرج منها . كان فخري عصبيا سريع الملل . فقد فتح الكتاب ولم يكد يلحظ فيه غموضا حتى اغلقه متأففا . ونادى على البويجي بعد ان كان قد طرده بغضب . وأشعل سيجارة اخرى . ولم يكن مغرما بالتدخين ولكنه أحيانا كان يكلف به فيشتري العلبة فتنتهي في ساعة واحدة ثم ينسى التدخين شهرا حتى يلتهب لسانه فيتركه مضطرا مر بائع كتب قديمة ، فاستوقفه وكان الرجل يعرف كيف يضحك عليه . ويستغل طيبته ويأخذ منه الثمن مضاعفا . . دفع ما طلبه البائع كعادته بدون مساومة لانه كان يكره ان يساومه في الادب وأخذ يقلب الكتاب فاذا بضحكة من ناحية الباب فالتفت نحوها . فـرأى

صاحبه الحميم علي خليل ٠

ـ أهلا علي اتفضل ٠

ـ جاي حالا ٠

وكان علي يتكلم مع صديق له ويسلم عليه مودعا ٠ وجاء علي خليل متهللا وكان شبيها بصاحبه فخري في الملامح المفكرة والعصبية القلقة والطيبة المتناهية ٠ وكان كل منهما يود لو اتيح له ان يظل ملازما للاخر لا يفارقه لانهما متشابهان في ان كليهما شاعر وكلاهمـــا يدرك غربته في العالم وانفراده ٠ ويؤمن بسخرية الدنيا ٠ ويعلم انه ما من سخرية مثلها يؤمن الانسان بها ٠ ولكنه لا يلقي بها بل يلتصق بها ويستزيد منها ٠ نعم كان علي يود لو لازم فخري وبقي يجالسه ابدا ليتحادثا في الادب والعلم والسياسة وعن مصر المسكينة الذبيحة ٠ نعم طالما تلاقيا كما يتلاقى الغريبان في الصحراء ٠حينا في هذه القهوة وحينا في اخرى فيشربان القهوة معا ثم يقومان ليضربا في شوارع القاهرة مشيا على الاقدام حتى يطلع الفجر على المدينة الراقدة وحتى يبصرا خيطا من اللهب في حواشي الافق ٠ مبشرا بحياة جديدة وأمل وكفاح ٠ فاذا أبصرا لازما الصمت ٠ الصمت الجليـــل العظيم الذي يعجز النفوس المتفاهمة في الجليلة الصامتة

التي يستيقظ فيها الكون . وتقوم القاهرة وحدهـا لتحارب الضنك والمطامع والاهواء والاجانـب والجمـود ولتشق طريقها الصعب الى الحياة والنور في المساء الذي وقعت فيه قصتنا تلاقى علي وفخري لقاءهما الجميل وبعد تحيات وأسئلة عادية قال فخري :

ـ اسكت يا علي شفت ليلى النهارده .

ـ يا شيخ ؟ بعد السنين دي كلها .

ـ آه يا فخري وبعد العذاب والاهوال . لو انـك كشفت قلبي لوجدته قد ابيض من الشيب دعك يـا فخري من شيب الرأس فهو لا يعتد به . أنا مثلك شائب القلب غير ان قلبي فوق ذلك ضامر . عمره على الاقل مائة عام . شفت ليلى وشفت ايلين التي تشبهها في يوم واحد وبيني وبين ايلين ميعاد الليلة ؟ ميعاد : وانت قد تزوجت . أعرف ذلك ولكني أقسم لك اني لن أذهب لاجل شيء وايلين تعرف ذلك واني أدفع لها نقودا كثيرة لكي أراها وأجلس على المائدة التي جلست عندها فـي ليلة عرس ليلى .

هل تذكر تلك القصة ؟ كيف لا أذكرها فاكر يا علي الليلة الفظيعة دي . قابلتك على القهوة ويمكن على نفس

المائدة وقد دهشت حين رأيت أمامي الويسكي على غير عادة وحين رأيتني سكران انزع منه وعجبت اين ذهبت رزانتي وتعقلي . ودهشت اكثر حين تركتك فجـأة واندفعت خلف امرأة من نساء الشوارع وهي ايلين التي واعدتها الليلة .

ـ ألا تنسى ليلى أبدا يا فخري ؟.

ـ أنسى ؟ وهل القلب يحب مرتين .

وجرت دمعة سخينة وانتشرت غمامة من الكدر فـي وجهه الناطق بالطيبة والعذاب . دمعة فيها قصة بحالها. دمعة تتكلم وتعبر ولو استطاعت لصرخت في وجه الحظ وأحرقته بنارها . الدمعة التي يذرفها فخري وهو الجلود الصبور تقول انه أحب ليلى التي زارته ليلة من ليالي الشتاء .

وكان اذ ذاك طالبا بالطب . فرأى في منامه انهـا تنتزع قلبه . وترمي به في أرض المشرحة وتلوثه ، أحب ليلى . وكان يعلم من ذلك الحلم انه حب عاثر . ولكن القدر الذي جاء بليلى زائرة لم يجيء بها لمحض العبث الخطر الذي يضع الانثى في طريق الذكر القدر ليس بهازل ولا ساخر . وطالما فكر فخري في قول توماس

هاردي • ان الطبيعة تحس التفكير في الاشياء وتسيء انجازها أي انها تجمع الانثى والذكر • ليتحابا فتحقق الطبيعة غايتها من بدء الخليقة ولكنها تجمع الواحد بغير الواحدة التي كانت يجب ان تكون له فيكون حب كما تريد الطبيعة ويكون عذاب وسقم وأهوال كما لا يريد أحد •

وليلى هذه كانت شديدة السحر قوية الانوثة وتمتاز فوق ذلك بعقل ناضج • ولعل ذلك هو الذي فتن فخري وألقى به في غمار هواها ، هي تعلم ان فخري يحبها وهي تحاول أن تحبه • لكنها لا تطيع قلبها • وتنظر بعين العقل الى أن فخري ترك الطب وان مستقبله مبهم• ثم انه غير جميل • ان الطبيعة لم تنعم عليه بقوام وقوة وصحة وان الزواج العملي لا بد فيه من مركز تضمن فيه راحتها وثانيا لا بد من زوج موفور الصحة قوي البنية •

ومن المدهش انها على حق وان فخري شاعر وأناني يرى انها يجب ان تحبه لانه يحبها ولانه يبذل لها قلبه وروحه ودمه • مسكين • هل يظن ان « قلبه وروحه ودمه » قيمة مادية تقوم كما يقوم المهر مثلا ؟ نعم كانت ليلى قوية التفكير • ولذلك تعذب فخري تعذب لانه يعلم

هذا الصراع في نفسها • ويعلم أن هذا الصراع دام أعواما طويلة • وزاده هو لانها مغرمة بالفلسفة • وذات رأي خاص في الحب والزواج • ذات رأي تراه قانونا كقوانين الطبيعة •

تعذب فخري لانه اذا سألها هل تبادله الحب تكذب حين تقول انها لا تدري وانها لا تكرهه ولكنها لا تحبه كما هو يحبها حبا عاصفا جامحا لا يعقل ولا يزن الامور • ولا يبالي بالعواقب فهي لا تنسى ابدا كيف كان يزورها في أيام الشتاء • فاذا خرج لم يرض أن يترك نافذتها فينام على مقعد عند الشجرة المقابلة حتى يراها في الصباح طالما رآه الخفير نائما نومة المتشرد فصاح به • فأخرج فخري النصف ريال • فيسكت الخفير ويأخذه وينصرف • نعم كانت تدري بحبه العاصف • وتعلم انه لم يكن حبا بل قدرا يجري وسفينة تمضي الى الشاطىء وقد ارتفعت الامواج وثارت ولكنها تمضي ولو تحطمت وأصبحت قطعا فوق الصخور العاتية •

تعذب فخري وطال عذابه بين الحياة القلقة في المدارس التي تنقل بينها وبين الحب الذي يضربه بمطرقته بلا رحمة •

وبعد سنين طويلة صار فخري مهندسا • وكان له

بين اخوانه شهرة المحب ولكن المحب الـذي يرضـي
حبيبته ٠فهو غير جميل٠ولا وسيم ثم انه لا يعنى بثيابه
وهندامه ولا بصحته ٠ وهو في نظرها المحب الذي تتسلى
بحبه ٠ ما دام شاعرا وذكيا ومفكرا ثم هو يخلق لهـا
مجالا للتفكير الذي تريده والفلسفة التي تألفها وكان
هو يقدسها ، ويعجب بكبريائها ، ويكتفي بأن يكـون
الحب من ناحيته ويقول في نفسه ان عندي منه ما يغمر
اثنين او اكثر على انه طالما كان يسائل نفسه هل حبه
ناقص ٠ ناقص لان الحب يفرض الاعجاب الجنسي أو
شيئا من الاحساس الجسدي والرغبة البدنية ٠ وكل ما
عندي منه هو تفاهم روحي ، هو اكتفاء بالحديث هـو
عبادة صامتة لملك متكبر ٠

وطالما استعرض تلك النفسية فدهش لان كل ما ناله
منها لا يعدو قبلة من يدها لدى الباب واذا خلا بنفسه
تساءل هل لو كان جميلا قويا وساحرا كان يخضـع
كبرياء ذلك الحسن ٠ وهل كان العقل اذ ذاك يضـع
الحاجز الذي وضعه القدر في سبيل غرامه هو ؟ أم ينهد
ذلك السور أمام القوة والبأس والجمال ٠ تساءل كثيرا
وما فائدة التساؤل ٠ ما دامت ليلى قد خطبت ٠

كان هو مهندسا للري في زفتى وخطبت وقبل الزوج

الجديد . ولم تفكر في الشاعر الذي تقطرت روحه دما عليها . وكانت خطبة وكان زواجا سعيدا . وعلم فخري وهو في زفتي بذلك . وكل ما استطاع المسكين أن يصنع هو ان يقف امام رف المكتبة فيرى بين كتبها اثنين فيأخذهما مقليا وناظرا الى خطها على هامشهما فيذكر بالضبط كيف سرق منها الكتابين لانها لم تعطه اياهما. ثم يأخذ الكتابين فيضعهما امامه ويغمض عينيه ويسترسل في الفكر . فما يطلع الصبح حتى يكون قد نظم قصيدة يشكو فيها حاله . قصيدة هي عزاؤه الوحيد . قصيدة وهم . سخافة ضياع وقت بينما هي غدا تتزوج ، وزوجها الذي لم يرها ابدا يتمتع بذلك الحسن وذلك هو الواقع أليس خيرا لفخري ان يرى حلا خيرا من القصيدة ومن الاسترسال فيما لا نفع فيه .

ألم يكتب شعرا من عشرة أعوام . ألم يقطر دم قلبه . ألم يبك عند قدميها . ألم يذهب الى المحطة ليراها مسافرة أو قادمة . ألم يقل شعرا في كل ذلك في لقائها وهجرها في ضحكها وحزنها . في العين حين تلمح والفم حين يتكلم واليد حين تشير .. تزوجت ممن لا تعرفه . وهو الذي يعرفها ويحبها وعاش بعدها ينظم شعرا ويبكي على كتابين ؟

الحقيبة تجهز ـ فخري مسافر الى مصر فـي قطار المساء ٠٠٠ الى أين ؟ الى العروس ؟ لا الى حيث تتم قصة الغرام ؟ الى حيث يدفنه في مكان قذر كالمشرحة التـي تلوث فيها قلبه ٠ أين يدفنه ؟ كان يسأل نفسه والقطار يسافر الى مصر وكانت ايلين ترن في أرجاء نفسه وتدوي في رأسه ٠ من العبث أن يذهب الى العروس لانه لا بد مقدم على سخافة وحمق ؟ فاذن الى أين؟ في الامانات ترك حقيبته وأخذ بها وصلا ومضى الى شارع عماد الدين حيث يجلس الان هو وعلي خليل صاحبه واندفع يشرب بلا حساب ٠

وجاء صاحبه علي فقام اليه يترنح ٠ وكان لا يكـاد ينطق اللفظ الصحيح حتى دهش صاحبه من أمـره ٠ فقص عليه خبره في ألفاظ متقطعة وكانت المائدة قريبة من الباب ٠ فوقف فخري فجـأة ٠ وكـان مشـوش الشعر قذر الثياب ، منتفخ العينين من فرط ما شرب ٠ وقف وصاح على الجرسون ٠ وألقى اليه بمال كثير لا حساب له واندفع يجري ٠ وعلي يعجب مـن أمره وقد رآه يتبع فتاة من نساء الليل وهي تدفعه وتخاشنه القول وأخيرا جرها جرا الى عربة وسار بها الى حيث لا يراه علي والواقع ان هذه المرأة كانت شديدة الشبه بليلى ٠

فما كادت تمر حتى قام يجري وتبعها وأخذها في عربة الى منزلها • وكانت تمانع لسكره ومنظره • ولكنه أقنعها بالذي لا يقهر • بالمال وأخذته الى منزلها ، في شارع مظلم يعرفه العربجي بالطبع لانه سار بلا كلام ولا سؤال وكان المنزل مختبئا خلف شجرة • تدعي انها تستره وهو مكشوف وتحجبه وهو سافر •

وكان البواب مضطجعا يغط في نومه فصاحت به ايلين فقام يهرول • فرحا بقدوم الزبون ، منتظرا البقشيش ودفع فخري نقودا كثيرة الى العربجي لا يعرف عددها فأخذها الرجل متعجبا شاكرا الصدفة التي جاءت بهذا الحمار • ودخلت ايلين تجر فخري وراءها جرا • وفتحت بابا في الطابق الاول بمفتاح معها ودخل فخري الى غرفة ذات سرير ودولاب • وصور نساء عاريات وطاولة بقرب السرير وكان فخري لا يبارح نظره وجه ايلين وفجأة وثب عليها واحتضنها وقبلها قبلات متوحشة فأبعدته برفق وأخذت تخلع ثيابها • وجلس هو أمام المائدة لا يصنع شيئا ، بل ينظر اليها وهي تخلع ثيابها ، وتبدي جسدها المغري البديع وتخلع على مهل • وتقف أمام المرآة وتصنع كل ما تصنع المومس المجربة وظل ينظر اليها ويحدق فيها بوحشية حتى ارتجف ولكن

المسكين كان قد وصلت أزمة احساسه الى القمة ·

وفي لحظة طار السكر وقلب عينيه كأنما يستفيق من حلم · اين هو ؟ في منزل دعارة ؟ ومن هذه المرأة · هي امرأة شبيهة بليلى جسدا وشكلا · ولكن روحها تختلف بالمرة ، فهذه مومس وتلك أطهر أنثى في أعف ثيــاب · في لحظة طار السكر · وصحا النائم وثاب الــى عقله المجنون · وعقب الازمة سيل من الدموع وعويل ونحيب مسموع فقامت المرأة لفورها · وارتدت ثيابها وهــي تظن نفسها امام مخبول · ولكنها عادت الى رشدهــا وتحركت فيها عاطفة المرأة · فهي امرأة على كل حال ولها قلب · فأقبلت عليه تلاطفه · فأشار اليها ان تجلس فجلس قبالها فأخذ يقص أمر حبه من أوله وهي تصغي· والليل يمر · وهو يقص وهي تصغي صابرة بينما هو يذكر كل شيء بوقائعه كأنما يقص على نفسه وانتهى من قصته والفجر يبدو من خلال النافذة ·

وأطرقت المرأة تبكي فجأة ، سيل من الدموع وعويل ونحيب مسموع كما صنع هو أول الليل · فعلم ان لها قصة تشابه قصته · علم ان الطبيعة أحسنــت قصدا وأساءت انجازا وان هذه المرأة ايضا فريسة ذلك الخطأ·

وان في الغرفة قلبين يتفقان في الضنك والبلاء . فقام اليها وقبلها في جبينها . ودفع اليها كل ما لديه من النقود وانصرف هاربا . وكان يزور القاهرة ليجلس على الطاولة وتجلس قبالته هي تذكر قصتها ويذكر هو قصته .

ميلاد عبقري

كان الاستوديو قائما في حارة في شارع سليم الاول بالزيتون ، أي والله في حارة عليها شبه رقم في أولها ومحاولة لوضع اسم لها في مدخلها ، شيء كتب بالطباشير ، وعدل عنه لان الحارة لا تستحق التسمية..
ولم يكن للاستديو رقم . ولقد حاول رستم أفندي أن يضع رقما على الباب - أي رقم - فمحاه اطفال الحارة، وخاصة أولاد أم ستوته بائعة الفراخ التي تحتل الغرفة المجاورة لاستديو رستم أفندي .

ولذلك كان لزاما على أهل الفن حين يزورون رستم أفندي أو يحضرون ليصنع لهم تمثالا أو يرسم صورة ، أن يمروا على قنطرة من الفراخ ..

في صباح يوم صائف شديد الحر ، وقف رستم

أفندي بالبيجاما على باب غرفته ، وقد بدا شعره الطويل قذرا متهدلا بصورة تدل على انه لا عهد له بالماء والصابون لاعوام خلت ...

صاح بأعلى صوته يام ستوته .. فأجاب صوت ضخم « ايه » ؟

قال : حوشي الفراخ لحسن نقروا صورة زوزو ..!

صاحت أم ستوته : زوزو .. زوزو .. مالناش حكاية غير زوزو ..!

فأطلت زوزو من بين كتفي رستم افندي وكانت ترتدي بيجاما هي الاخرى ، وعلى وجهها طبقة من الطلاء لا تدع سبيلا لمعرفة الوجه ، ودفعت رستم عنها وبرزت الى الميدان ووضعت يدها في خاصرتها وقالت : ايوه زوزو مالها ؟ ستك وتاج راسك .

فظهرت أم ستوته في الميدان فاذا بها خمسة رجال في امرأة .. وقد حاولت ان تبدو امرأة بارسال شعرها عند أذنيها .. وبخلخال ذي جلاجل ينذر بقدومها ، فلم يفلح كل ذلك في اظهار أي انوثة عندها .

قالت بصوت غاضب : « الحق على اللي قابلك عنده ولا انتي مراته ولا حاجة ! دا جزا المعروف » .

قالت زوزو : « هو المعروف انك تسيبي الفراخ تاكل صورتي » دي صورتي كانت حتاخد الجايزة وتخرجنا من الحارة الملعونة دي ومن ... » وهمت بارسال اللعنات فرأت أم ستوته تمد يدها لتتناول مداسها ... فولت هاربة الى الداخل وفي اثرها رستم أفندي . واذا بصوت ينادي من الخارج : رستم أفندي .. رستم أفندي . فخرجت اليه أم ستوته عازمة على احداث ضجة أو خصومة بأية حال ، ولكنها ابصرت الصحفي فتوح الذي اعتاد ان يزور رستم افندي وكان طيبا محسنا يعطف عليها ، ولا تخلو زيارته من كلمة طيبة أو احسان ما . فتهللت أساريرها وقالت :

أهلا ، وأخذت بيده الى غرفتها وقدمت له كرسيا وصنعت له القهوة وقد نسيت ما كان بينها وبين رستم وصاحبته . قالت أم ستوته لفتوح :

ـ رستم ده بينيل ايه ؟ مانيش شايفة ان الصور دي تنباع ولا يمكن ربنا يفتح عليه ؟ والانكى انه جايب لنا ست زوزو يصورها علشان ياخد جايزه ، مع ان الواحد مش عارف ان كان لها وش ولا لا من كتر الاحمر والابيض ..

قال فتوح افندي : « رستم جدع كويس بس ربنا لسه مفتحش عليه ·· عاوز حد يعمل له كام كلمة ·· »

همت أم ستوته بالكلام فاذا رستم يقبل من بعيد وقد سمع صوت صديقه ولكنه كان مقبلا في حذر وخوف من غضب ام ستوته ···

قال فتوح وقد رآه : « رستم افندي : تعال ·· » ونسيت أم ستوته غضبها فلم تتكلم ··

قال رستم لصديقه : « تعال عندي » وأخذه الى الاستديو حيث جلسا يتحدثان ·

بدأ فتوح الحديث قائلا : يا رستم ·· ان معيشتك على هذه الطريقة لن تنفعك في شيء · يجب ان تبتكر شيئا خارقا يلفت النظر ·

قال رستم : « زي ايه ؟ » ·

قال : نبتدع طريقة تصوير جديدة نسميها الطريقة التحليلية النفسية في التصوير وهـذه تكـون رمزية محضة ، أي انها مجرد فكرة والباقي في ذهن المصور أو المتفرج ! فاذا أردت رسم موقعة لا ترسم غير الدماء واذا اردت رسم ضابط فلا ترسم غير نيشان ونجمة ·· هل تستطيع ان تجهز لي بضع صور ؟

قال رستم : غدا يكون عندك مائة .

قال فتوح : غدا أكتب لك مقالا في نداء الوطن ــ مقالا افتتاحيا يبشر أهل الفن بالعبقري رستم مختـرع الطريقة التحليلية في التصوير ومعلنا عن يوم افتتاح المعرض .

وقد حدث كل ذلك ، حدث ان فتوح كتب المقال ، وان المعرض افتتح وان رستم نادت به الجرائد كعبقري فذ ... وكان اذا سئل عن سر طريقته قال في فلسفة وعظمة « المعنى في بطن المصور » وبيعت رسومه كلها ، وأثرى وخرج من حارة أم ستوته . الى شقة فخمة في الزمالك .

وذات صباح كانت زوزو تتهيأ للخروج ، وقد ارتدت احسن ملابسها ، فاذا بالخادم النوبي يقول ان فتوح افندي في غرفة الاستقبال ، فقالت زوزو بعظمـة : فتوح مين ؟ ونادت بأعلى صوتها : « رستم .. رستم.. شيء اسمه فتوح ينتظرك .. »

قال رستم من بعيد : قوليله مبيقابلش صحفيين .

الذبـــاب

كان الدكتور « حكيم » شغوفا بقراءة التاريخ الطبيعي يجمع كل ما تصل اليه يده من المؤلفات في هذا الفن ٠ ويهمه خاصة ان يعرف كل شيء عن عالم الحيوان ، وطالما ادهش اصحابه بما يعرفه عن القطط والكـلاب والقرود ٠ واذا ذهب مع نفر منهم الى حديقة الحيوان في يوم راحته ، فانهم يجدونه سميرا مدهشا ومعلما يتدفق كالسيل كل ذلك في سهولة عجيبة وبساطـة رائعة ٠ وطالما صحح لهم أخطاء شائعة بين الناس عن هذا الحيوان او ذاك ، مقارنا ، مفصلا مستمدا معلوماته من ذاكرة نادرة ٠ فوق هذا فانه لم يكن يهمل ان يقرأ اخر الابحاث الطبية فكان بارعا في فنه ٠ وكان اخلاصه لنفسه ولمرضاه كاملا ٠ ولذلك كان موفقا ناجحا ، وكان النجاح يأتي اليه سهلا ، طبيعيا ، كمـا يحفظ هـو

التاريخ الطبيعي وكما يتحدث بما حفظه منه الى اخوانه وأصفيائه حين يخلو اليهم ٠

وفي عهد القصة التي نحن بصددها كان في الثلاثين من عمره ٠ وقد نشأ في عائلة فقيرة الحال ٠ ولكنها من العائلات الصالحة التي تستر فقرها بصلاحها ٠٠ وتداري خصاصتها بكبريائها ٠ فقد كان احمد افندي العادلي والد الدكتور حكيم موظفا بسيطا في جمرك الاسكندرية يتقاضى خمسة جنيهات في الشهر ٠ وقد خدم الحكومة ثلاثين عاما ولم يزد مرتبه عن خمسة جنيهات وأمثال احمد افندي العادلي يعدون بالالاف ٠ تنساهم الحكومة نسيانا تاما ٠ ويقطعون حياتهم كما قطعها العادلي افندي ٠ مع فارق واحد ٠ هو انهم لا ينقطعون عن الشكوى والعرضحالات « والوسايط » او يخرجون مضطرين عن امانتهم واخلاصهم فيمدون ايديهم لتناول الحقير من الرشوة ٠

اما العادلي افندي فهذه الجنيهات الخمس كانت تكفيه للسكنى في بيت صغير نظيف ، ومنها يشتري سجايره ، ومنهم يدفع مصاريف المدارس ، ومنها زوج ابنته الكبيرة أمينة ، ومنها وفر شيئا قليلا اشترى به أرضا وعاجلته المنية قبل أن يبني عليها البيت

الصغير الجميل الذي كان يحلم به • نعم صنع كل هذا من خمسة جنيهات في الشهر • ولم يكتب مرة عرضحالا ولا شكا أمره الى موظف كبير • ولا سعى في وساطة •

كان يقوم بعمله الصغير كأنه اكبر الاعمال فاذا انتهى منه انصرف الى منزله متهاديا بقوامه المنيف مزهوا بشواربه الطويلة يرسلها الى اعلى • ومشى يقرع الارض بعصاه كأنه أمير من الامراء • وكان له قليلون من الاصفياء يلاقونه عند الاسطى علي الحلاق المجاور لمنزله ، فيتحادثون أو يلعبون الطاولة • وحديث أصفيائه يدور حول حوادثهم اليومية الصغيرة • فيصغي اليهم اكثر مما يتكلم • فاذا تكلم أوجز واحسن وأخلص في النصح • وأكثر اصفيائه اختلاطا به علي أفندي الماوردي الذي يملك مالا وعقارا كثيرا ومع ذلك فهو دائب الشكوى من مصاريف المنزل « وخوتة » العيال والمدارس •

وذات يوم كان الاسطى علي يحلق لزبون فاذا به تمهل فجأة ووقف يصغي الى ما يقوله العادلي افندي للماوردي افندي اذ كان دائما يتحدث عن العادلي افندي للناس بأنه راجل تقيل وكلامه ذهب » •

فتل العادلي افندي شاربيه الى اعلى وأخرج سيجارة

من جيبه ونفخ دخانها واتأد ثم قال « شوف يا علي افندي رايح اقولك كلمة تفتكرني بيها دائما . وان كان ممكنك تعمل بها احسن لك . لان النصيحـــة عادة ما تنفعش . انت راجل ما شاء الله عندك املاك وحالتك عال .. ودايما تشكي .. تعرف بتشكي ليه ؟ » .

رفع الماوردي افندي رأسه في بلاهة قائلا ليه ...؟
قال « من حاجتين الحاجة الاولانية انك راجل طيب قوي ومعنى طيب أوي انك مربوط بحاجات صغيرة كتير لده ولده والحاجات دي مكتفاك مع انها صغيرة عشان كده ما انتش قادر تعوم والدنيا دي زي البحر لازم تكون خفيف وقادر تحرك ايديك ورجليك علشان الميه تشيلك » .

ففتح الماوردي افندي فمه في بلاهة قائلا صحيح الله ينور عليك . والحاجة التانية .. قال « الحاجة التانية انك علشان راجل طيب قوي حوالينك دبان كتير كله طمعان في شهدك . ولكنـــه يدوش ويعكـــر المـــزاج وقذر ... » .

صاح الماوردي افندي باعجاب : ولكن ايه العمل ؟
قال العادلي افندي « العمل .. شوية شجاعة يا أخي . ازمي الحاجات اللي متقلاك في البحر .. والدبان اطرده

ولا هات له دوا من الاجزخانة · صحيح الواحد لازم يكون رجل طيب ولكن الطيبة لها شروط ·· اعطي واحسن ولكن اللي يكفيه مليم ليه تدينه قرش تعريفة· واذا كان عندك ترعة بتسقي زرعك ما تعطيش ميه الترعة وتسيب زرعك يموت · الواجب اولا والاحسان بعدين·· وحاجة كمان ما تشتريش اللي انت مش محتاج لـه لحسن يجي يوم ما تقدرش تشتري اللي انت محتاج له· انا شفتك وانت بتجهز بنتك في غاية الضيق لانـك قبلها بشهرين كنت نازل شرا حاجات مالهـاش لزوم وبيتك مليان منها ··· » ·

قال هذا وسكت بين اعجاب الماوردي افندي والحلاق الذي غفل عن الزبون تماما ، هذه كانت فلسفة العادلي أفندي رحمه الله · لقد كان يحسب حسابا لكل شيء الا القدر ·· فقد صدمته سيارة مسرعة وهو خارج من منزله ذات صباح فقضت عليه ·

وكان حكيم في السنة النهائية من مدرسة الطب ، شابا طويل القامة ، وسيما ، طلق المحيا ، نظيف الثياب يسكن في غرفة قرب المدرسة يصله أجرها بانتظام · مع مصروفه الشهري ، واذا حـان ميعاد المصروفـات السنوية لم يكن بحاجة مرة الى تذكير والده · وكان

هو في الواقع عندما يفكر في تدبير والده يحار كل الحيرة ، ولا يكاد يصدق · ويقول أتصنع الجنيهات الخمسة كل هذا ؟

وزادت دهشته بعد اصابة أبيه بصدمة السيارة ، أخبرته والدته ان عندهم بحمد الله من المال ما يكفي « للخرجة » ودفع مصاريف المدرسة ـ وهي اخر مصاريف ··

جلس بجواره في المأتم ليواسيه صديق والده الماوردي افندي فمما قاله له « ابوك كان راجل ما فيش زيه » ثم أعاد على مسامع حكيم النصائح التي أعطاها اياها المرحوم قبل ان يموت بشهر · « وحكاية الدبان يا ابني دي حقيقي · بكره تبقى دكتور مشهور وتشوف من الدبان ده كثير وتفتكر المرحوم والدك وعمك الماوردي » ·

فتح الدكتور حكيم العادلي عيادة في حي السيدة زينب علق في واجهتها « يفطة » كتب عليها « الدكتور حكيم العادلي خريج كلية الطب المصرية اختصاصي في الامراض الباطنية » ولم يلبث ان ساعده الحظ ، وأقبل المرضى على عيادته اقبالا غير معتاد لان المرضى في مصر لا يقبلون هذا الاقبال على الطبيب الجديد · ودأبهم أن

يزدحموا في عيادات المشاهير ليتفاخروا بذلك عند ذويهم وأصحابهم ‧‧ ولكن الحظ لا شأن له بهذا ولا ذاك ‧‧‧ ان عليه ان يهبط ، وعلى الظروف أن تمكنه من ان يثبت أقدامه ‧‧‧

وكانت الظروف عند الدكتور حكيم وفيرة ‧ أولها قوامه الطويل الرشيق ووجهه الوسيم الجميل ولعله لم يكن جميلا حقا ، ولكنه كان موفور الصحة وهو لن ينسى حديث أبيه له في كل مناسبة « حافظ على صحتك اشترك في أندية رياضية ‧ انا كنت في سنك أشيل حديد وأصارع وألعب كرة » وثانيها انه كان يعمل عمله باخلاص ولا يبالي بغير ذلك ‧ كان عليه ان يفحص مريضه بعناية ويمحضه النصيحة في غير كذب ولا ادعاء غير ناس ان عليه ان يهون عليه وان لا يغلق دونه ابواب الامل ‧

وكان يرى كثيرا من [illegible] الجميل وسوء اخلاق الناس وإستغلالهم لحيائه ‧ فانه لا ينسى مطلقا الحاج سويدان الذي استدعاه لعلاجه [illegible]اب على ذلك ثلاثين يوما حتى شفي ، ولكنه لم يعطه أجره ، وقد لقيه مرة في صالة بديعة يشرب وينفق عن سعة أمثال الاجر الذي يستحقه الدكتور حكيم ‧ ولا ينسى مطلقا راغب أفندي ‧

الذي استدعاه في ليلة من ليالي الشتاء ليعود ابنتـه فعادها ولم يرجع الى منزله الا عند الفجر مشيعا بكلمة ... « نشوفك الصبح يا دكتور » ولم يجيء أحـد « يشوفه الصبح » وقد لقي راغب افندي هذا ذات يوم في الترام فصافحه راغب أفندي بكل وقاحة وقدم اليه سيجارة رفضها الدكتور – وانتهت المسألة ٠

كل هذه الذكريات تطوف في باله وتفت في عضده أحيانا ٠ ولكنه كان ينفضها عنه كما ينفض غبار الطريق ٠٠ وينزل الى غمار عمله باخلاص كما يندفع الجندي الشجاع الى الموقعة ! رجع من عيادته ذات مساء فـي ساعة متأخرة ، وكان متعبا وقد ساءه على الاكثر ان ازدحام العيادة لم يعد يمكنه من الذهـاب الى نـادي التجديف ولا التنس وشعر بشيء من الضعف وتغير في طعم حلقه نسبة الى كسل في كبده لقلة الرياضة والهواء الطلق ٠٠

وكان يسكن بقرب العيادة مع والدته التي كانت له كل شيء في الحياة ٠ وكان هو كل أمانيها ٠ لقيته واجمة للتغير الذي لاحظته في محياه ، وسألته فأجابها ... « ادفع ثمن النجاح يا أمي ، اكسب فلوس وأفقد صحتي ونفسي ٠ وأيضا أدفع ثمن اخلاصي وهو ضياع

راحتي » قالت المسكينة مشفقة « خد لك راحة يومين »
أجاب : « وأولئك الذين حياتهم في عنقي · لمن أتركهم ؟
الطبيب المخلص مسكين يا أمي ··· » ·

ومضى الى غرفته وخلع ثيابه واستلقى على سريره وتناول كتابا في التاريخ الطبيعي أرسلته اليه المكتبة في ذلك اليوم ، فأخذ يقلبه فوقعت عينه على فصل « الذباب » فرجع بذهنه الى ليلة المأتم « وعمه » الماوردي ووصيته له عن « الذباب » ··· فأخذ الهم يذهب عن نفسه ، واسترسل في استعراض طويل ، وشخص ببصره الى أعلى فوجد جماعة من الذباب متراكمة حول حبل المصباح الكهربائي المتدلي من السقف ، وبغير مناسبة تحرك فريق منها فصار عند المصباح الصغير الذي بجانب السرير وأخذ يطن طنينا مزعجا وتحرك فريق اخر فصار حول كلته ، محاولا ان يدخل اليه · وأفلحت واحدة خبيثة وصارت تثب هنا وهناك كشيطان صغير ، تلطمه في وجهه ثم تثب الى اعلى ثم تدور ثم تستقر قليلا ثم تعود الى دورانها الملعون ماذا يصنع مع ذلك الدخيل البغيض ، ضحك لانه افتكر انه لا يعرف عدوا غير هذا يقتله الانسان مشمئزا ·

وبينما هو في ذلك سمع جرس البيت يقرع فصاح

قائلا : « مريض جديد رحماك يا الله ولكنه ارتدى قباءه على عجل ونزل ليفتح الباب • فاذا به يرى « عمــه » الماوردي افندي نعم « عمه » الماوردي أفندي يحاسـب العربجي الذي جاء به من المحطة • أهلا عمي المـاوردي أفنـدي ايـه الصـدف دي وايـه اللـي جابـك ان شاء الله خير ـ والله يا ابني عيان • وجيت على طول عليك وخايف اضايقك اذا كان كده أروح لوكاندة •• ابدا •• مع والدتي فقط والبيت واسع ، ويمكنك تنام معي في غرفتي ففيها سرير اخر •

كان هذا الحديث أثناء السلم وهما يصعدان • فما كاد المقام يستقر بهما وأخذ الماوردي افندي يخلع ثيابه ويتكلم عن مرضه حتى ضحك الدكتور حكيم وقال دي صدفة عجيبة يا عمي انا كنت بافتكر فيك دلوقت • شايف الدبان اللي على الحبل واللي على الناموسيـة فضحك الماوردي افندي وقد اهتز كرشه الكبير الضخم وقال مش ده اللي بالي فيه • انا بالي في الدبان الادمي ، عامل ايه وياك ؟ فمرت سحابة من القلق فوق جبين حكيم وذكر يومه المتعب وصحته التي أخذت تتقهقر •• وقال كثير يا عمي قوي كثير ••• احكي لي حكايـة مرضك لغاية ما افحصك في العيادة بكرة • ويأخذ يسرد عليه أوجاعه •

في صباح اليوم التالي ارسل الماوردي افندي تحياته الى زوجة صديقه المرحوم عادلي افندي ، وتحيات عائلته « اللي كانوا عايزين ييجوا معاه ولكن ما قدروش عشان العيال والمدارس » ٠

وبعد تناول طعام الافطار ذهب الماوردي افندي والدكتور الى العيادة ٠ وكانت الساعة لا تزال الثامنة صباحا ٠ ومع ذلك فقد كانت المقاعد ممتلئة ٠ فاهتز الماوردي افندي فرحا وضغط على ذراع ابن صديقه ٠ وفي غرفة العيادة اخذ الدكتور يفحصه بعناية ٠ وأخيرا أخبر مريضه انه في حاجة الى البقاء بمصر عدة ايام فصار الماوردي افندي يحضر صباحا وينتظر حتى يمضي مع الدكتور للمنزل ويعود مساء فينتظر حتى يستصحب الدكتور ٠

وذات مساء كان الدكتور متعبا منهوك القوى ٠ فالتفت الى الماوردي افندي قائلا : انا في حاجة الى الهواء الطلق٠ قال الاخر ولازمك منشه ، قال حكيم لماذا ٠ أجاب : عندك دبان ادمي كتير وده اللي بياكل شهدك وجايب لك التعب انا بقى لي جمعة هنا وعرفت كل شيء ٠ دي اشكال كتيره ٠ مثلا راجل معاه تذاكر حفلة ينتظر بالعيادة كل يوم خمس ساعات ليعطيك تذكرة ٠ وأنت

كل مرة تعطيه وهو لا ينقطع عن المجيء • واخر ينتظرك عند فانوس النور اثناء خروجك • والحلاق الذي يأتيك كل يوم بعشرة زبائن مجانا • والقهوجي الذي يأتيك كل يوم بعشرة زبائن لا يدفعون لك قرشا • والقهوجي الذي تعالج عائلته كل يوم مجانا ولا يستحي أن يحاسبك على كل فنجان وينصب عليك • والكاتب الذي يأخذك كل يوم في العربة لترى زوجته ولا يعطيك شيئا ، بل يدعك تدفع للعربجي • والحاجة تاجرة الفراخ التي تعالج ابنتها المشلولة بالكهرباء •• هي اغنى مني ومنك• والممثل الذي تعالجه بلا أجر ويعطيك تذكرة اللوج ولا يستحي أن يقبض ثمنه • والسكير الذي يقول لك وانت تنزل السلم انه لم يأكل • ويأخذ فلوسك ليشرب وبعد ان يمرض عليك ان تعالجه ••• أهو ده الدبان الادمي اللي كلمني عنه ابوك الله يرحمه •••

وفي اليوم التالي ثارت ضجة في العيادة • فخرج الدكتور ليرى فصاح الماوردي افندي شوف شغلك يا ابني دي دبانة بنشوف شغلنا وياها وفي اليوم التالي ثارت ضجة مثلها • وفي اليوم التالي كان الماوردي افندي يضرب بعصاه رجلا واقفا تحت فانوس النور • فنزل الدكتور على صوت العراك فصاح الماوردي افندي

وقد بدا جسده الضخم مضحكا وهو يلاحق شخصا يصيح ويستغيث شوف شغلك يا دكتور دي اخر دبانة .

وفي اليوم التالي كان الدكتور يودع عمه المـاوردي افندي في المحطة ، وتحرك القطار وهو يصيح خد بالك يا دكتور من الدبان الادمي وافتكر عمك الماوردي .

فنــان

قدم محمد افندي العناني استقالته اليوم • أجـل قدمها لرئيس مكتبه حسني افندي ابو زيد الذي فتحها وقرأها من وراء نظارته السميكة ، قرأها ، ثم نظر الى العناني افندي ثم عاد الى قراءة الاستقالة • كانـت الاستقالة بسيطة ، فهذا موظف صغير يقول ان الوظيفة الحكومية تعوقه عن اداء عمله الفني ، وانه كموسيقي موهوب يأبى ان يستمر في هذا العمل الالي ، هـذا الروتين الممقوت • ويقول في ختامها : ان اعصابه تحطمت وانه قاب قوسين أو أدنى من الجنون ان لم يتخلص من هذه القيود اللعينة •

صاح أبو زيد افندي في وجه العناني افندي « مش عاجباك الحكومة يا شيخ اتلهى هو انت لاقي تاكل ! »

ثم استطرد قائلا : « اللي زيك حقه يموت من الجوع علشان ده كله بطر •• » ثم صاح وهو يوقع تحت الاستقالة « تقبل يا افندي • مع السلامة » وجمع العناني افندي أوراقه وانصرف وهو يتنهد بارتياح • لم يودع احدا ولم ينظر الى خلفه بحسرة » لانه لم يكن هناك ما يتلفت له القلب متحسرا •• هذا هو الشارع •• النور ، الهواء الطلق ، الحرية وضع يده في جيبه فوجد قليلا من القروش ففكر قائلا وهو يغري نفسه « لا بأس• المجد الفني خير من الغنى » وبعد خطوات قليلة كان امام منزله ، منزل صغير في شارع محمد علي يدخل اليه الانسان من حوش ثم في دهاليز ملتوية مظلمة حتى يبلغ سلما خشبيا فيصعده فيجد غرفتين تكاد ان تكونان خاليتين احداهما له والاخرى لامه •

وقف العناني افندي امام السلم الخشبي مترددا فرأى والدته تنشر الغسيل وأقبلت على وحيدها متهللة • حقا لقد كان وحيدها وكانت تغسل وتخيط الثياب ، وتكد حتى أمكنها ان تكمل تعليمه ولقي له وظيفة • ولقد كانت تعلم هوايته للموسيقى • فاشترت له عودا ، واتفقت مع المعلم حسين الذي كان رئيس فرقة موسيقى حسب الله ، لكي يلقنه المبادىء • فلقنه اياها ، غير

ان التلميذ ما لبث ان نبغ ، وأخذ يتقدم في فنه حتى قال الذين سمعوا عزفه ان هذا نابغة حياته ـ لو تفرغ للفن ـ ولكن أنى لموظف فقير ان يصنع ذلك ؟ ها هو اليوم قد خطا الخطوة الجريئة • ولقد ظهر ذلك في وجهه جليا ، عندما أقبلت عليه أمه متهللة • نعم لقد لمحت أمه في وجهه شيئا غريبا • قالت : « ماذا بك ؟ لقد حدث أمر هام ولا شك ••

أجاب : « لقد قدمت استقالتي » صاحت : كيف •• ابعد هذا الذي صنعت من اجلك •• ثم أخذت تبكي ، ثم انصرفت تجمع الجيران ، ونادت المعلم حسين •• واستدعت من النافذة « زوزو » بنت الجيران • وزوزو هذه فتاة ساحرة الجمال يكاد يكون بينها وبين العناني وأمه شبه اتفاق على الزواج •

أخذ الجيران يلومون العناني وهو يردد جملة واحدة « ايه يعني الحكومة » ثم انحازت زوزو اليه مكملة جملة « ايه يعني الحكومة ده العمل الحر احسن • والعناني موسيقي نابغ بكره تشوفوا » ثم اردفت بحماس « احنا يرضه نشتغل ونتعب علشان هو يكمل تعليم الموسيقى وبكره تشوفوا » انصرف الجيران غير مصدقين وفي

أعينهم لمعة أسف على « الحكومة اللي طارت ، هو حد لاقي وظيفة ؟ » ٠

منذ ذلك التاريخ أخذ العناني يتردد على معهد الموسيقى ويحبس نفسه الايام والليالي في سبيل الدرس والتحصيل وكانت أمه وخطيبته تكدان وتكدحان في سبيل القوت، الى ان جاء المعلم حسين ذات يوم زائرا ، فصاح في وجه العناني « واخرتها ايه يا سي عناني بزياده بقه تعليم : انت بقيت عظيم ، ناقصك بس حفلة وشوية اعلانـات والدنيا كلها تشيلك على كتافها ٠ وجدت هذه العبارة هوى في نفس العناني الذي أجاب قائلا : « شوف لنا متعهد انت تعرف كثير » ٠ أجاب المعلم حسين : علـى عيني ٠ وقام للبحث عن متعهد ٠ وقام العناني بدوره للبحث عن فرقة تكمل التخت ٠

وبعد بضعة ايام اعلن الاهرام عن حفلة موسيقية في حديقة الازبكية يحييها المطرب النابـغ الاستاذ محمـد العناني على تخت من مشاهير رجال الفن مع نمر اخرى واستعدوا في المنزل المتواضع للحفلة أيما استعداد ٠ فقد فصلت زوزو فستانا جديدا ٠ وأخذت الام تسهر الليالي لتنتهي من « شغل » الزباين حتى تستطيـع الذهاب للحفلة وترى بعينيها نجاح ابنها وكانت في المبدأ

تعترض على ذهابها هي بالذات متعللة بأنها لم تتعـود الذهاب لامثال هاته الحفلات ولكن التفكير في نجاح ابنها وتصور اجتناء ثمرة ذلك التعب الطويل • غطيا على كل تفكير اخر •

وفي الساعة الثامنة مساء ٩ اكتوبر استقل التخـت عربة ، وركب المعلم حسين بقربه السائق ، وقالت زوزو انها ستصحب الوالدة بعد قليل •

أخذ التخت يستعد • اصلاح اوتار • رنين آلات• ولكن الساعات مرت والصالة الواسعة لم يشرفها احد •• وظلت الكراسي خالية • توسط عناني التخت • واخذ يستعد ومد بصره للصالة • لا أحد بعد قليل تطلـع التخت الى قادم : سيدة •• هذه زوزو وحدها • سألها العناني بالاشارة عن أمه فردت باشارة اخرى انها آتية• لم يحضر احد •• لم يحضر أحد مطلقا وظلت الكراسي خالية • وران الصمت على المكان كأنه مقبرة حقيقية • لا تدري زوزو بالضبط ما الذي حدث وانما تعرف ان التخت « هاص » وصعدت هي الى المسرح لترى فـاذا العناني مغمى عليه • تعاونت مع المعلم حسين على حمله في عربة وعادت به للمنزل ، كان قد أفاق فـي الطريق قليلا ، وتلفت حوله كمن ضاع صوابه وصارت تسألـه

زوزو : ما بك فلا يجيب ٠

عرفت المسكينة ان الصدمة التي أصابته ، هذا الفشل الذريع في أول مجهود ، كاد يقضي عليه ، ووقفت العربة عند الباب ونزل المعلم حسين وسبقهما ، وظل يقرع الباب الداخلي ٠ ما من مجيب ، عاد مذعورا وهو يقول « البيت ما فيهش حد » فأفاق العناني وقد لذعه الخبر وتحامل على ذراع زوزو وأخذا يقرعان الباب ٠٠ ما من مجيب ٠ دفعوا الباب بقوة فانفتح وصاحوا مذعورين عندما رأوا أم العناني ميتة بجوار الباب وهي بثيابها النظيفة متهيئة للخروج ، أخذ العناني والمعلم يبكيان ، وتشنجت زوزو ، واجتمع الجيران ٠ وكانوا جميعا أصدقاء لها ٠ اذ كانت امرأة طيبة محسنة ٠

تمت اجراءات المأتم وعاد العناني متعبا كئيبا ٠فالتفت الى زوزو قائلا « خلاص انتي مراتي وأمي وكل شيء » ، وأنا سأعود الى الوظيفة ، وسأحرق كل ما يتعلق بالموسيقى ، اذهبي الان ، احرقي النوت ٠ كسري العود يااللا قومي فقامت مجيبة طلبه واشتم هو رائحة ورق يحترق فاطمأن ٠

في اليوم التالي ذهب يسترد استقالته ٠ فقابله أبو

زيد افندي متعجبا وقال : « مش قلتلك .. مزيكة ايه وزفت ايه ؟ » .

اكتفى العناني الان بأنه موظف كالباقين يذهب الى الديوان ويعود من الديوان . وعقد عقده على زوزو وكان المعلم حسين من الشهود غير انه بعد ثلاثة ايام مما ذكرنا قرع المعلم حسين الباب ومعه رجلان يبدو عليهما العزم والشهامة قدمهما المعلم حسين قائلا « أهم متعهدين جامدين . سمعوك . وسمعوا عليك . وضامنين انك بشوية بروباجندا واعلانات والحاجات السخيفة دى تشتهر وتبقى أول واحد في مصر » أجاب العناني ، بزيادة بقى يا معلم حسين .

صاح المعلم حسين : بزيادة ازاي انت جبان كده ليه جرب مرة ثانية . أجاب : ولكني احرقت النوت وكل ما يتعلق بالموسيقى ؟! وصاح : زوزو ، زوزو . أسرعت اليهم وكانت تسمع الحديث قائلة « كلا لم أحرق النوت ها هي ، لقد كذبت عليك » .

وبعد أيام قليلة سبقتها البروياجنده والاعلانات امتلأت الصالة ونجح العناني وطارت شهرته وقال المعلم حسين شوف ياسي عناني مش كفاية انك تبقى شاطر

لازم دعاية وشوية كلام • وعاد العناني فاستقال من جديد •

وقال أبو زيد افندي مندهشا : هوه جرى ايه في عقلك ؟•

في الريف

هربت من المدينة ابتغي هدوا في الريف ‥ كانت المدينة قد أتعبتني بضجيجها ، وانوارها وأصمت مسمعي بجلبتها وضوضائها ، فركبت القطار مسرعا الى عزبة عمي فقد كان عمي ابتنى لنفسه « صومعة » كما كان يسميها وجعل حولها حديقة وزرع بضعة أفدنة ، وكان يهرب اليها ويحتمي بهدوئها وقد جعل هذه « الصومعة » وقفا على ذلك « الهروب » فكان لا يعطي مفتاحها الا للذي يقصدها طلبا للراحة ٠

وكانت الصومعة مطلة على رأس ترعة ، وعلى حرف الترعة شادوف وبجانب الشادوف ساقية ٠ ذلك كل ما تطمع ان تراه الاعين في تلك الخلوة « التصوفية » ٠

كنت قد أخذت مفتاح الصومعة معي وأرسلت تلغرافا

لناظر العزبة فوجدته بانتظاري هو وحماره ·

وأخيرا وصلنا وتناولت عصاي وخرجت أمشـــي الى الساقية · وجلست على حرف الساقية ، وأخذت اسبح في خيالات بعيدة · فاذا بصوت مزمار بعيد ، وأغنية تصل الي على أجنحة الهواء كأنفاس طير مغرد ·· كانت هذه أغنية قديمة ، أحببتها وألفتها في صباي وفي الواقع لا أدري كيف أصف ما صنعت بي هذه الاغنية ··· « ايه يا ترى اللي انكتب لي في الهوى وياك ··· ان كنت ناوي السفر بالله خدني معاك » ·

أخذت الاغنية تهدأ رويدا رويدا ، وكان ذلك الصمت الذي في أثرها أعمق من الاغنية وأكثر أثرا في نفسي ، ثم ارتفع صوت المزمار مترجما عن نفس الاغنية شارحا معنى الموال · فتمنيت ان أوسد رأســي علــى حرف الساقية وأمضي في غيبوبة نهائية ، يهدهدني بها المغنى الذي وصلني صوته ولم تره عيني بعد · وفعلا وضعت رأسي على خشب الساقية ، استعدادا للذهاب · للذهاب الى أين ؟ الى عالم بعيد عن ضوضاء الاحياء ، بعيد عن تكلف العيش ، بعيد عن الذين أحبهم وأكرههم ، كنت معذبا جريح القلب أحمل في طيات قلبي ذكريات حب محطم عاثر ، جئت لابدده أنفاسا في ذلــك السكـون

الشامل • لا أدري كم هكذا أغفيت ، وانما أذكر انـي استيقظت على صوت خطوات تقبل في رفق وليـن • وكانت شجرة الجميز المجاورة للساقية تلقى ظلا علي • وتجعل الناظر الي لا يراني عن بعد • اقتربت الخطوات وأنا أراقب القادم نصف مغمض العينين •• رجل يرتدي « لاسه » وفي وسطه خرج وفي يده مزمار كل بضاعته مزمار وأغنية ••• يا رباه ما اعظم هذا الثراء وما أفخم ذلك المغنى ! أغنية ومزمار ••• اما انا الذي يملك عمي هذه العزبة ، ويملك عمي الاخر مثلها •• وعمتي مثلها•• والذي يجد الرزق سهلا ، والمال موفورا •• فهو برم بالحياة ، سئم بما يجد •• يود لو باع كل هذا في سبيل أغنية ومزمار •••

جلس المغني في الطرف الاخر من الساقية وما كاد يرفع مزماره الى فمه حتى رأى شبحي مستلقيا فصاح فزعا « مين ؟ » •

قمت في هدوء وقلت : انا ابن صاحب القرية •• لا تخف •• استمر بالله في غنائك الجميل • لا تحرمني •• لقد جاءني صوتك من بعيد فأسكرني •• قـل •• غن مرة اخرى •• ايه يا ترى اللي انكتب •

فغناها ، ثم كررها ، ثم تلاها بأبيات اخرى ، ثـم

سكت المغني ، وأحسست ان قصة حياة هذا الرجل تتجاوب مع جرح قلبي القريب ٠

فسألته فجأة : هل أحببت ؟ قال : « امال تفتكر ده كلام بس ؟ » حبيت مرة واحدة ، واديني داير في البلاد أغني للي عرف الحب مرة واحدة » ٠

قلت : « وحياتك تحكي لي الحكاية اللي خلتك تقول ياللي نويت السفر » ٠

وضع مزماره وخرجه الى جانب ، فناولته سيجارة فأخذ ينفثها ، ثم طلع القمر ، وألقى ضوءه على اثنين كلاهما أحب ، وكلاهما يطوي جرحا غائرا ، أما الاول فيملك كل شيء الا ان يضمد ذلك الجرح ٠٠ أما الثاني فعنده الضماد وعنده السلوى ٠ عنده هذه الاغنية والمزمار ٠

قال الرجل اسمي حماد ٠ وصناعتي كما تعلم وترى صاحب مزمار ، ولقد كنت في أول عهدي ناشئا تلقيت الاغاني على صاحب مزمار عجوز ٠ ولكنني كنت أشعر ان ما لقنني اياه هو صناعة فقط ، أرتزق منها ، وأحس انه لا بد ان يأتي اليوم الذي أغني فيه حقيقة لا صناعة ولقد جاء ذلك اليوم ٠ فلقد كنت أطوف البلاد لا استقر

في بلد حتى القي رحالي في الثاني • فالتقيت في تطوافي بصاحب مزمار عجوز له ابنتان « غازيتان » هو يغني وهما ترقصان • ولقد لقيتهم يرقدون في ليلة كهذه على حرف ساقية كهذه ، فسرعان ما فتحوا لي صدورهم ، وعشوا في وجهي ، وسرني ما رأيت في الابنتين من الطيبة واللطف ، حتى قلت للشيخ : « ما تاخدني وياك » فقال في الحال « مرحب » وكانت الفتاة الكبرى « هنية » واسعة العينين ، دائمة الشرود ، دائمة الاسترسال في الاحلام ، واذا عادت من شرودها وأحلامها فهي طيبة ومحبة وحنان • لم أر مثلها في حياتي • لم يمض يومان حتى قال لي صاحبي العجوز ، اسمع يا عواد دلوقت بس عرفت تغني •• قول يابني الله يحميك « فغنيته ياللي نويت السفر » غنيتها وأنا انظر في عين هنية ، ونفسي تحدثني عن سفر بعيد •• سأسافر أو تسافر هنية أو نسافر معا ، هناك سفر على كل حال •

طربت هنية للاغنية وتناولت المزمار من أبيها وترجمت ما أقول ترجمة لم أر أرشد منها تعبيرا وعمقا • أخذنا نطوف البلاد ونتنقل من بلد لاخر • وكلما ازدادت الالفة بيننا تبين لي الفرق بين الاختين ، الاولى هنية ، حنان ومحبة وعطف والثانية « بطة » مادة وشهوة ، وقد كانت

تغري الناس بما بها من مظهر المرأة اللعوب ، فكان الرزق الذي نصيبه انما ينحدر الينا عن سبيل بطة · الى ان حططنا رحالنا في بلدة موبوءة بالحمى · فمرضت بطة وأخفيناها أنا وأبوها وأختها في « حاصل » بعيد عن رجال الصحة فلما ماتت دفناها ·

ويظهر ان النحس كان يلازمنا بعد موت بطة ، فلم تكن هنية بالفتاة التي تغري الجماهير ، ان جمالها كان يبدو للقريب منها ، فهي من الصنف الذي لا يحب لاول نظرة ولذلك لم يكن رقصها مغريا ولا خلابا كأختها ، أخذ النحس يطاردنا من بلدة لبلدة ·· حتى استقر بنا المطاف ذات يوم عند قرية خربة وقد مر علينا يومان بدون طعام وكان العجوز قد ارتمى على الارض وهو يلفظ انفاسه الاخيرة · ولقد كنا نحسب انا وحدنا وآثرنا ان نموت معا وندفن معا · لقد كانت الحياة على شقائها جميلة وحتى النحس حينما كان يضمنا معا كان جميلا · نظرت الى هنية ، واشارت فاقتربت منها · فهمست « أبويا بيموت » قلت « الامر لله يا هنية انا ابوك وأخوك وكل شيء » ·

ولم أكد أفرغ من حديثي حتى سمعنا وقع أقدام ، واذا بالدورية تطاردنا ، تطارد من ؟ تطارد الحفاة

العراة ، الذين لا يملكون غير مزمار وأغنية · صـــاح « رئيس الجند » « ياالله عند المأمور » قلت محتجا لماذا ؟ قال « انتم حرامية » قلت : حرام عليك داحنا غلابـــه وأبونا بيموت ·· فضربني بالسوط وقالوا طيب ناخذ البنت ·· البيه عاوز يشوفها ، وصاح الرجل بجنوده ، فوقفت هنية وقفة شماء ، وكان القمر يلمع وقد ألقى ضوءه على الترعة الجارية فتدفقت كأنما تدعوها اليها ، فلبت نداءها بسرعة البرق ، وقبل أن يفطنوا لشـــيء حملها التيار مسرعا ··· وكان هذا هو السفر ، الذي في أغنيتي ·

ان كنت ناوي السفر بالله خذني معاك ···

هذه قصتي ··

رأيت في عين هنية ذلك السفر الرهيب ، فهاأناأطوف البلاد ، لاذكر السفر وأتمنى المسافر حتى نلتقي ···

فمسحت دمعة جالت في عيني ·

الاقدار

كانت العيادة غاصة بالمرضى والتمرجي «عبد السميع» واقفا يوزع « النمر » وحينما يدق جرس الطبيب يلبي طلبه . ثم يعود الى النمر . ويتحدث الى المرضى .وأخذت العيادة تمتلىء والنمر تتدفق ، حتى لم يبق مكان لاحد . وكل يوم على هذا المنوال وكان الناس يتوافدون في وقت مبكر الا انهم كانوا يقابلون الطبيب الشهير بصعوبة لكثرة الازدحام .

وفي اليوم الذي حدثت فيه حوادث القصة التي سنرويها كانت العيادة مكتظة بالمرضى اكثر من كل يوم وكل مريض يتذمر . وكل مريض يرشو التمرجي ليقدمه على غيره ... وكل مريض يعتقد ان الشفاء هنا .حيث يتدافع الناس بالمناكب . ويتزاحمون في حنق ويدفعون

أجرا باهظا • وكيف لا يتم الشفاء والطبيب الشهير « عوني » هو المتفرد في مصر وحده في دقة التشخيص • ومن ميزاته انه لا يعرف من أمور الدنيا غير الطب يعيش له ، ويتفانى فيه • لا يوجد كتاب الا قرأه • ولا مجلة الا اطلع عليها • ولا بحث جديد الا عنده خبر به • وفوق ذلك هو طبيب الامراء والعظماء • فكل هؤلاء الناس قد قرأوا في الصحف منذ ايام ان عظيما من عظماء السودان استدعاه لعلاجه فرحل على طيارة •وأذيع يومئذ انه سيتناول أجرا قدره الفان من الجنيهات •

دق جرس « التليفون » في الصالة فأسرع التمرجي « عبد السميع » الى تلبية النداء ، وجرت المحادثة الاتية : الدكتور موجود ؟ أيوه موجود ولكن مشغول • ما يخلصشي قبل الساعة عشرة ؟ نقدر نكلمه ؟ مش ممكن• لانه بيكشف على مريض ••؟ قول له من فضلك ان الطفل اللي شافه « الصبح » عيان بالدفتريا • دلوقت في حالة خطرة • بيت الشيخ خلف في شبرا البلد ••؟ طيب حاديله خبر ••• وقرع التمرجي باب الطبيب ودخل يخبره بحديث التليفون •• جلس الطبيب على مكتبه يشرح للمريض نوع مرضه ويكتب الدواء اللازم وكان ينظر اليه من خلف حاجبين كثيفين • وحول عينيه

المتعبتين هالتان وغضون قد بكّرت اليه وفي عارضيه شيب كثير · ورأسه العاري أصلع ناحل · وفي جلسته وقار وثقة واطمئنان ، وفي اشاراته بيديه تأثير واقناع· ونبرات صوته تخرج متزنة قويــة واضحــة والمريض يصغي في بلاهة وايمان · ويتلقى الامر وكأنه يأخذه من أباه · ويتناول ورقة لدواء كأنما يتناول تميمة مــن الرقى ·

ووقف التمرجي لدى الباب ينتظر · حتى أتم الطبيب حديثه مع مريضه فأخبره عندئذ عبد السميع ان بيت الشيخ « خلف » في شبرا البلد يطلبونه لزيارة الطفل الذي رآه في الصباح فقلب الطبيب كفيه متضجرا ·· ونظر الى السماء يسترحم وتهالك على كرسيه متعبا ·· شبرا البلد ··؟ وحالة دفتريا متأخرة · وقــوم فقراء يستغلون طيبته ، كما يستغلون تلهفــون جارهــم ولا يدفعون أجرا ··· ونظر الى الساعة التي أمامه علــى المكتب فاذا بها التاسعة · لقد اشتغل وظل يشتغــل منذ الساعة الرابعة دون انقطاع · وفحص في هذا المدى ما يقرب من الاربعين مريضا · وأمامه بيان بعشر زيارات في البيوت · وأخيرا بيت « الشيخ خلف » في شبرا البلد ؟ ثم ما شأنه هو بالاطفال · هو طبيب أمراض

باطنية لماذا لا يستدعون غيره من الاخصائيين في مرض الاطفال ؟ انهم يعرفونه من قديم ويثقون به في كل شيء . ويعتقدون ان فيه البركة . وهو من ناحيته عودهم أن يلبي طلبهم كلما استدعوه فماذا هو صانع الليلة ؟ والطفل في حالة خطرة وهو نفسه متعب مجهد. خائر القوى . والزيارات امامه كثيرة متعددة . زيارات مكسبة ذات أجر وربح طيب . ماذا عليه اذا ترك الطفل وشأنه ماذا يهمه اذا مات او عاش . هل يؤثر ذلك على شهرته الواسعة ..؟ كلا .. اذن فليدعه يموت وليجر هو وراء رزقه وربحه .

وأطرق حينا يتردد . وفي لحظة واحدة انتصب واقفا ذاكرا ان مجده الطويل العريض انما قام على المروءة التي أسداها والخير الذي صنعه صاح بالتمرجي، جهز الحقنة الكبيرة ، ومصل الدفتريا ، وقل للسائق اننا سنذهب الى شبرا البلد في بيت الشيخ خلف ، فذهب التمرجي يلبي أمر سيده . وما لبث ان عاد قائلا ان السائق غائب والسيارة وحدها حاضرة ولا بد ان يكون السائق قريبا يقضي لنفسه شأنا . فصاح الطبيب وهو يرتدي معطفه .. لست في حاجة اليه . وسأسوق بنفسي .. هات الشمنطة . ولست في حاجة

اليك انت ايضا ٠ فانصرف الى منزلك وعيالك ٠

وفجأة عاوده نشاطه وزايله ضعفه وأبرقت عيناه وانفرجت أساريره واحتقب أشياءه ونزل الى السيارة يقودها ٠ لم يكن الطبيب سائقا ماهرا ٠ وكانت عيناه متعبتين من القراءة والدأب المتواصل على العمل وكان الظلام سائدا ٠ ومنزل الشيخ خلف بعيدا منعزلا ٠٠٠ لكنه كان يرى أمامه شيئا واحدا يرى طفلا مريضا ٠٠ مشرفا على التلف ٠٠ وفي مقدوره ان ينقذه في خمس دقائق بحقنة من مصل الدفتريا وليس عليه الا ان يدركه في الوقت المناسب ٠ يجب ان يسرع فقد يستطيع العودة الى منازل الموسرين ٠ يجب ان يسرع وصاح به هاتف يدعوه فانطلق بسيارته في جنون ٠٠

وعندما وصل الى الطريق المؤدي الى شبرا البلد سمع خلفه نفير سيارة تلاحقه ورآها في المرآة التي أمامه فوق كرسي القيادة تسرع مجنونة اكثر من سيارته حماقة واندفاعا وشعر ان النفير الذي يدوي خلفه هو نفير الموت ونذيره ٠ وليس هناك وقت ولا مكان للخلاص ٠٠ فالطريق ضيق غير ممهد ٠ والنفير المجنون يلاحقه ٠ فلم يبق أمامه ان اراد النجاة الا ان ينزل بسيارته الى الحقل المجاور ٠ وبعد ؟ فمن ذلك السائق المجنون

الاعمى الذي يلاحقه · لا سبيل الان الى التفكير ، فاندفع مرغما الى الحقل ؟ وشعر في وقت واحد بصدمة عنيفة في المؤخرة وصوت « فرامل » كحشرجة شنيعة واهتز من هول الصدمة فحاول أن يتلمس باب العربـة فلم يستطع ، وشعر بأضلاعه تنقصف ، فأغمض عينيه ·

ولما كان طبيبا مؤمنا فقد لفظ الشهادتين وأصابته اغماءة قصيرة المدى ، ثم قام بعدها متخاذلا ·· مضعضعا يلعن السائق « الحمار » الاعمى الذي يستحق الشنق في رأيه وتلفت حوله فوجد السيارة التي صدمته في مكانها ، فأشعل النور ليرى السائق الحمار ويلعنه ·· واذا بالسائق الحمار ليس الا سيدة رائعة القوام ترتدي معطفا وتحجب وجهها ·

قال الطبيب وهو يرتجف : لقد حطمت سيارتي يـا سيدتي بجنون قيادتك ثم أمسك يدها بعنف قائـلا : « انني طبيب يا سيدتي ·· ذاهب لانقاذ طفل ·· وليس لدي وقت وليس لدي حيلة للوصول الا استخدام سيارتك فصاحت السيدة بصوت قلق ضجر غاضب : « وأنـا ايضا لا وقت عندي » فهز يدها في عنف قائلا متجهما : « يستحيل أنا أدعك تذهبين » وجرى الى سيارته المحطمة فأخرج منها الحقنة ووثب الى سيارتها ، فتبعته صاغرة،

وكان يرشدها الى الطريق • فوقفت السيارة بعد قليل عند بيت الشيخ خلف وهو بيت ريفي حقير •

نزل الطبيب من السيارة وجر السيدة صاحبتها جرا وهو يقول لها في حزم وعزم « صبرا فربما احتجنا الى سيارتك لنقل الطفل الى المستشفى » •

فنظرت في ساعة سيارتها وتولاها شيء من الخيبة والرعب والقهر ، ثم تبعت الطبيب في صمت واستسلام •

واستقبلهما الشيخ خلف عند الباب وفي يده مصباح صغير • وكانت السيدة قد انكشف وجهها ، فـرأى الطبيب على ضوء المصباح ، وجها رقيقا ناضرا ساحرا •

وصعد الجميع سلم البيت الخشبي ، حيث يرقـد الطفل في غرفة ضيقة ، مغلقة النوافذ ، على حصير قذر ممزق •

كان باهت اللون منتفخ العنق ، يتنفس بصعوبـة قصوى ، وفي شفتيه زرقة ، وفي عينيه انطفاء ••• فلما جس الطبيب نبضه قال : حمدا لله •• لا يزال هناك أمل •

وأخرج ما في الحقيبة ، مستعدا لتأدية واجبه ، وقد نسي الصدمة ، والموت الذي نجا منه منذ برهة •

ثم نظر الى السيدة ضاحكا يقول : هيا للمساعـدة يا سيدتي الممرضة فتقدمت متبرعة بالمعاونة ٠

حقن الطبيب الطفل بالمصل ، ثم أعطاه حقنة كافور وجرعة دواء منبه ، فلم يلبث الدم ان جرى في وجنتي المريض ٠٠٠ وتنهد الطبيب مرتاحا يقول : لقد أديت واجبي ٠٠

وأخذت الممرضة الحسناء تعيد الاشياء الى موضعها في الحقيبة وهي تبتسم ، وقد نسيت تماما ما كانت هي ايضا اليه سائرة ، في الليل منفردة الى قدر أعمى ٠!

وعادا الى السيارة « والشيخ خلف » يشكر ويبتهل ، فكان ذلك الشكر ، وهذا الابتهاج هو ، كالسابق ، أجر الطبيب من الشيخ دائما ٠٠ منذ سنوات مضت ٠٠

ذلك الشكر والابتهاج ، كانا أجره على تعرضه للموت وتضحيته بالنفس والنفيس في سبيل واجبه ٠٠

تحركت السيارة ، فقال الطبيب : شكرا يا سيدتي على مساعدتك القيمة لقد أنقذنا طفلا ليس له من يعنى به الا جده الشيخ خلف ٠٠ فأمه تركته لرحمة الله ٠٠ ومضت خلف عشيقها ٠٠٠ وان الاطفال لفي حاجة قصوى الى أمهاتهم يا سيدتي ٠٠ ان الام هي كل شيء بالنسبة الى طفلها ٠٠

فارتجفت السيدة من فرعها الى قدمها ولم تجب . قال الطبيب ، وقد وصلا الى حيث سيارته المحطمة : شكرا لك يا سيدتي مرة ثانية .. وان كنت أجهل من أنت .. ولا أفهم السر الذي جاء بك منفردة بسيارتك في شبرا البلد .

قالت وقد تندت عيناها بدموع لا يهمك يا سيدي ان تعرف من أنا وانما الذي يعنيك انني أم هجرت طفلي توا .. لألاقي عشيقي ، فلقيتك . وقد ردني منظر الطفل الملقى دون أم في منزل مهجور عن حمقي وضلالـــي .. وزادني خجلا حديثك عن واجب الامهات وحق الامومة .. وهاأنذا عائدة الى منزلي .. لقد تلقيت درسين علـــى يديك في لحظة .. التضحية في سبيل الواجب ،وواجب الام نحو ولدها بالتضحية ..

اعترافات مريض

عبد الستار أفندي شاب عجيب رأيته لاول مرة حين دعيت الى عيادته ذات مساء اذ أرسل الي بواب العمارة لكي أزوره على جناح السرعة · كنت متعبا في ذلك المساء أشعر بالحاجة الملحة الى النوم · فكانت دعوة عبد الستار افندي هذه ثقيلة علي ، بغيضة كريهة · والواقع ان ضميري كان يحدثني بأن لا البي دعوة عبد الستار أفندي بحال من الاحوال · وزادني تصميما على ذلك ان البواب يقول انه يسكن في « السطح » وان العمارة « خمسة أدوار » وليس بها مصعد ·

الحق انني تلكأت فانصرف البواب ثم عاد · ثم انصرف ثم عاد وأخبرني ان عبد الستار افندي في « شدة الكرب » وأنه غير قادر على الحركة بالمرة · وأنه يشعر باقتراب

الموت • وأنه غريب ليس له أقارب ولا أصدقاء • وانه فقير جدا جدا •

ولم يكد البواب ينتهي من سرد تلك الاوصاف المغرية حتى جاء التمرجي يقول « ان عبد الستار أفندي يريد الكشف » فخجل البواب واستدار على عقبيه وهرب في سكون واستخذاء •• ودهشت انا ووجدت نفسي قد انصرفت عن الكلام ، ودب في نفسي نشاط جديد وشوق لرؤية عبد الستار أفندي • اذ كنت أشعر اني مقبل على شخصية مسلية •• شخصية الرجل الذي يشعر بالموت ، ثم يرفسه بقدمه ، ثم يرتدي ثيابه ••• شخصية الرجل الذي يستدعي الطبيب ثم لا ينتظر حتى يعوده بل يمضي اليه بنفسه •• شخصية الغريب الفقير الذي يعيش في سطح « عمارة » ذات خمسة أدوار • وأخيرا الاسم نفسه « عبد الستار أفندي » يشعر بشيء ويبشر بقصة بل قصص بحالها تطرد السأم وتذهب بالكلال •

دخل عبد الستار افندي •• قوام طويل •• ناحل •• وجه هزيل شاحب ، نظارة « باغة » بعوينات كبيرة •• طربوش قصير يميله الى ناحية ويجعل « الزر » مشيرا الى أذنه •• حرف الطربوش مكسو بطبقة واضحة مكونة من العرق والقدم والقذارة •• الياقة رخيصة من

« الكستور » ورباط الرقبة من النوع الذي يدور بـه البائع في القهوة وثمنه من قرش الى قرشين · ولكنـه جعل العقدة كبيرة على شكل « مودة » أولاد الذوات · يرتدي بذلة على شكل تلك « المودة » ايضا أي ضيقة من الوسط وبصفين من الازرار ·· يحلق شعره بطريقة خاصة أوضح ما فيها سوالفه · اذ جعلها مستطيلـة ودببها كحرف السيف · عمر ذقنه ثلاثة ايام على الاقل ·· معه منشة اسيوطي كتب عليها اسمه بالحبر ··· البنطلون شارلستون · أي متسع اتساعا عجيبا من أسفل ·· مشيته وهو مقبل علي فيها غـرور ورقص مضحك · لا يمشي مستقيما ولكن يمشي بحركة لولبية ·· في الجيب الاعلى من سترته منديل رخيص من لون القميص · تدلى على الجيب كلسان قذر ·· في كلمتين أبدع ديكنز وصف هذا النوع العجيب فسماه « أناقة قذرة » وما أكثر ما نراه في الطريق وفي الترام وفي الاوتوبيس وفي المسارح ·

وماذا خلف هذه « الاناقة القذر » ؟ المرأة دائما ، والغالب ان يكون هناك اكثر من امرأة واحدة · الغالب ان يكون هناك صنف المرأة على الاطلاق · وخلفها ايضا غرور عجيب قذر وعمى حسي ، وبطولـة فـي نواح لا

تخطر على بال وصور مغامرات نصفها كاذب والنصف الثاني رمز أمان مضحكة ٠

ومن أكثر انواع هذه البطولة « بطولة الدعارة » ٠٠ وهذه البطولة النادرة ، معناها ان يكون له خليلة من المومسات . ويقتضي ذلك ان ينفق عليها حتى يفلس ، ويقتضي ذلك ان يكون « فتوة » الحي ، يسكر حتى يختل صوابه ، ثم يضرب ويضرب ، ثم يفيق في غرفة الحبيبة ممزق الثياب ، منتكش الشعر وبه من الجراح ما لو نطق لقال قولة خالد ابن الوليد : بي ألف طعنة وطعنة ٠٠ لا نامت أعين الجبناء ٠٠

جلس عبد الستار افندي ومد بوزه في كبرياء وقال : يا دكتور مش حرام عليك أبعت لك بقى لي أربع ساعات وأنا على وشك الموت فلا تحضر ؟ أجبت ساخرا : انت مش عارف حضرتك عمارتك كام دور ٠٠ وحضرتك ساكن فين في العمارة ٠ ثم انك قادر على الحركة ٠ أجاب : المقصود الواحد ما يزعلش منك لانك مشغول قوي ٠ أنا عندي مغص ٠٠ مغص فظيع ٠ وزيادة على كده جسمي كله بقع زرقاء ٠٠ بقع زي النيلة تمام ٠

وقام مضطربا فخلع ثيابه بسرعة وبشكل عصبي مضحك فرأيت حقيقة بقعا زرقاء كل بقعة في حجم

الريال تملأ جسمه كله . قمت بفحصه فحصا دقيقا فلم أهتد الى شيء . لم أجد في ذهني غير كلمتـــي مغص وبقع .

وفجأة خطر لي خاطر . فقلت في حزم : ألبس هدومك يا عبد الستار أفندي وقل لي على الحكاية . مرضك له حكاية . ولازم حكاية عجيبة . دي اعراض تسمـــم وتسمم بدواء غير معروف فاصفر لونه ونظر الي مكبرا معجبا لاني « فقست » سره ولم ادعه يتكلم بل أردت ان أدهشه اكثر فقلت : « انت بتحب وفي الوقت نفسه كنت محتاجا الى المال .. كنت محتاجا اليه لاجل الفتاة التي تحبها . وفي سبيلها ارتكبت امرا عظيما . وفي سبيل ذلك الامر العظيم تناولت شيئا . أسرع قل لي ما هو ؟ » .

فصاح وهو يجلس على الكرسي متهالكا ، وقد فتح فمه كالابله « شيء عجيب » منين عرفت ؟ أجبت وقـد ضحكت في سري لان المسألة بسيطة . دون جوان قذر وفقير . « اعرف كل شيء بس عاوز تفاصيل المسألة علشان اعرف أداويك » .

قال وهو يصلح ياقته ويربط رباط رقبته . اسمع اذن فانها حكاية نادرة ، مهنتي عمل النظارات واصلاحها

فاذا انقضى النهار اغلقت الدكان ومضيت اصنع ما يصنع العزاب ، فذات ليلة كنت جالسا في احد البارات فاذا بعربة تحمل نسوة تتوسطهن امرأة صغيرة السن فتانة فتنة غير معتادة . شعرت في الحال ان قلبي تعلق في العربة من الخلف كما يتعلق الاطفال الشياطين ... وشعرت ان احدا يصيح « ورا يا اسطى » وان الكرباج يمزقني .. ويمزق قلبي .. شعرت بشيء يمزقه ووضعت يدي فوقه من الالم ، ولكن العربة كانت قد اختفت عن نظري ، سألت رفيقي الذي كان يلاعبني الكونكان ، ما تعرفشي مين دي اللي فاتت في العربة ، أجاب ضاحكا « قصدك الوسطانية طبعا » قلت طبعا . قال « دي هنومة » والاجر على الله . هنومة يا سيدي اللي انقتل على شانها كل شاب وأخوه زي الفحل وانخرب على شانها بيوت .

تصورت في الحال اني فحل اخر سيضاف إلى قائمة القتلى وان بيتي سيضاف الى قائمة البيوت اللي خربت ... وجدت نفسي اسأل واستفسر حتى عرفت اين تسكن . ووجدت نفسي انسى الدكان والنظارات واصحاب النظارات وانطلق في الصباح الى هنومة . وارجع وش الصبح من عند هنومة . ولكن هنومة هذه مائدة عسل

ابيض شهي عليها الف طالب وطالب يتجمعون كالذباب الكثيف ··· اصنـــاف مختلفـــة ··· موظفيـــن وتجار وموسرين ·· لا أطيل عليك · تحايلت وتحايلت وأنا اشعر اني ان لم أصل الى هنومة فاني سأموت حتما · وكانت طريقتي اليها ان ألبس أفخر ثيابي · وان أجلس الى غيرها ولا أكلمها هي · وان أصرف بغير حساب ·

وقد نجحت الطريقة فعلا فقد لفت نظرها · وصارت تحاول ان تكلمني · ولكن بعد ان صرفت كل ما كان عندي في الدكان الذي ورثته عن أبي ·· عندما أخذت تلتفت الي ، كنت أصرف اخر قرش عندي ·

وذات ليلة جاءت الي من نفسها وأنا جالس أحادث غيرها وقالت في دلال : انت مش بتسأل ليه يا سي عبد الستار يعني احنا مش حاجة ولا ايه · هنا شعرت بأن « الفحل » المنتظر على حرف السكين ، ورأيـــت بعيني المنزل والدكان وكل ما فيها يتلاشى ويتبخـــر وقمت في الحال اليها بدون ان استأذن من رفيقتي ·

لا أطيل عليك · مرت علي الليالي وِالايام وانـــا استيقظ على ذكر هنومة · وأنام عند عتبة هنومة اذا لم تسمح هنومة بفتح الباب ·· ولا أطيل عليك فـــي الكلام « شطبت » ولكن هنومة عليها فلوس استدانتها

وقد قالت لي وهي تبكي ودموع هنومة شيء لا يرد وتشنجت وهي تدفن رأسها في صدري « خايفة من السجن يا سي عبد الستار ٠٠ والكمبيالة استحقت بعشرين جنيه » وكانت لا تخاطبني بغير « يا سي عبد الستار » فقلت في خبث وشيطنة ما تطلبيهم من البهوات فلان وفلان وفلان اشمعنى سي عبد الستار ؟ فازدادت تشنجا ودفعت رأسها في صدري دفعا فظيعا لتؤكد لي اني الوحيد عندها ، فلم استطع المقاومة بعد ذلك ٠

وخرجت مهرولا لابحث عن عشرين جنيها طرقت كل باب فلم أفلح ، سألت المرابين لا بد من ضامن ، درت على الاصدقاء والمعارف « ما فيش والله » ، كان في رأسي هاتف لا ينقطع عن القول « هنومة عايزة فلوس ٠٠ هنومة عايزة فلوس » وله دقة قطار الاكسبريس وهو يردد « اديني فحم اديني فحم » ٠٠ بقيت طريقة واحدة عمتي كيف نسيت عمتي ٠٠ ثم ان النقود التي عندها هي من حقي ٠ ألم أكن أعطيتها من سنة خمسة جنيهات ونسيتهم ٠

وفي لمح البرق خطر لي خاطر اخر ٠ انها غنية وبخيلة ولا تعطي غير شيكات ثم انها تقرأ وتكتب وتمضي هذه الشيكات ، حسنا المسألة بسيطة ، ان نظرها ضعيف

ولي عادة ان احمل اليها نظارة « هدية » .. في هذه المرة سأحمل اليها النظارة ، ولكن مخالفة لنظرهـا . وسأكتب شيكين احدهما بخمسة جنيهات والاخر بعشرين جنيها . وسألصق الاول بالثاني بالصمغ . وأقطع من الاول محل الامضاء . فحين تضع امضاءها يكون الامضاء على الثاني ذي العشرين جنيها . وسوف لا تستطيع ان تميز شيئا في الشيك لان النظارة الجديدة كفيلة بذلك .

سررت أيما سرور بتلك الحيلة ، وفركت كفي وهنأت نفسي بمهارتي .. لا أطيل عليك ذهبت اليها وقد جهزت الشيك في جيبي ونجحت حيلتي لاخر لحظة . فقد ذهبت اليها وقلت لها اني في حاجة الى الخمسة جنيهات التي أقرضتها اياها . فتبرمت قليلا كعادتها ثم قامت لتحضر دفتر الشيكات فقلت لها : لا حاجة لذلك فقد جهزت لك الشيك بسلام ولم تلمح شيئا غير عادي . وقبل ان اخرج صاحت : « يوه يا دي العيبة ما جيبنالكش حاجة يا بنت يا حسنية هاتي شربات » ولسوء الحظ لم تكن حسنية موجودة ، فقامت هي بنفسها وأحضرت لي شيئا تناولته . فلم أكد اتجرعه حتى شعرت بمغص شنيع . وشعرت بأحشائي تتمزق ، وألقيت نظرة على

الزجاجة التي أفرغت منها « الشربات » فاذا بـه دواء للصراصير ، فلما قلت لعمتي ذلك أجابت : « يوه يا ابني ما هو نظري ضعف ويظهر النظارة مش موافقاني » ·· ولا أطيل عليك ·· صرفت الشيك بعد ان نزعت الاول بالبخار وذهبت بالنقود الى هنومة · وجلسنـا نسكر حتى ساعة متأخرة من الليل ولكنها شربت حتى فقدت وعيها وبعد ان كانت في أتم حالات النشـوة والسرور انقلبت لبؤة ضارية · وشعرت بشيء ينهال علي فاذا به الشبشب ·· ورأيت نفسي في الشارع عاري الرأس أعدو كالمجنون ·

وفي اليوم التالي ظهر لي جرح في موضع هام ، وفي اليوم الذي بعده ظهرت الزرقة التي تراها ··· فما هو السبب يا دكتور ؟··

قلت : أولا الشبشب ·· وثانيا دواء الصراصير ··· وثالثا الجرح ·

مسكين يا عبد الستار ··

فقر وغرام

كنا جماعة من الاصدقاء نجلس حول مائدة في كازينو الحمام بجوار النيل . كان الليل هادئا والنيل ينساب صامتا تتلاطم أمواجه على الشاطيء برقة كخطوات موقعة في صالة رقص اخر الليل حين تكل الاقدام وتفتر السيقان ... أخذنا نثرثر ونتضاحك أولا ، ثم سحرنا النيل والليل والسماء الصافية ، فصمتنا فجأةواسترسل كل منا لافكاره . ان هذا المنظر بما اشتمل عليه من سحر وجمال ودلال لا يبعث غير ذكرى امرأة أحببناها. لقد كانت هذه الذكرى تلمع في عين كل منا . وزادتها التماعا موسيقى تنساب الينا من الراديو القريب .

التفت فجأة الى صديقي فتحي المحامي وقلت « فتحي ماذا بك ؟ الى أين وصلت ؟ قال مازحا « حيث وصلتم جميعا » .

كان فتحي محاميا ناشئا ولكن كل من عرفه كـان يتوقع له مستقبلا فخما • اذ اجتمعت له عدة مواهب قبل ان تجتمع لفرد واحد • فلقد كان ذكيا لامع الذكاء • وخطيبا مفوها ، وعالما متنوع المعلومات يضاف الى ذلك رجولة ناضجة الى شمم الى قدرة على التضحية لا تتاح للكثيرين •

تابعت حديثي قائلا : « اتعتقد يا فتحي ان الانسان يمكنه ان يحب انسانا اخر وهو يعرف عيوبه ، وقـد تنكشف له الوان من تلك العيوب كل يوم ، ومع ذلك فان الانسان يظل يغفر هذه العيوب ، كأنه كان على استعداد للغفران قبل ارتكاب الذنوب ؟

قال فتحي : ولم لا ، انك تتكلم عن الحب • لا عن مجرد علاقة فيها جاذبية من الناحيتين ، الواقع اننا يجب ان نحترس حين نتكلم عن الحب ، ان هذه الكلمة تشبه الملك الذي نزل عن عرشه وصار يستجدي في الطرقات• لقد ابتذلت وهانت • ان جلال الحب الحقيقي في بقائه ثابتا لا يتغير مهما انكشف للانسان من خطايا حبيبه • مهما بدا له ، في اية حلة وكيف • وصمت فتحـي •• ثم اشعل سيجارة وقال « على نفس هذه المائدة التي تجلس حولها ، كنت التقي بصاحبتي روزي ••• أجل

من الصدف العجيبة ان هذه المائدة هي بنفسها التـي شهدت أروع غرام وأقصره أمدا ، وأحفله بالكـذب والخطايا » • ثم مد يده يتحسس خشب المائدة وقوائمها كأنما يتحسس شيئا عزيزا ، وكشف غطاء المائدة وأرانا حرفين مكتوبين في زاوية هما « ف• ر » وهنا رأيت شبه دموع تتجمع في مقتليه • على الاقل رأيت ظلالا من الحزن تبدو تحت ضوء المصباح المعلق فوق رؤوسنا• استرسل قائلا :

تعرفت بروزي صدفة في مخزن أدوية ، وتطـورت المعرفة العادية الى صداقة فمواعيد فغرام جارف ، لا أدري ماذا كنت أجد في عينيها كنت أرى في عينيها وسادا مريحا ومضجعا لينا ، أسند اليه رأس قلبي المتعب بعد نهار مر في عناء وكد ، ماذا كنت أجد في شعرها كان شعرها كستنائيا مفروقا من الوسط ، ويتدلى على جانبي رأسها في فوضى لذيذة كانت عيني لا تمل النظر اليه •

ماذا كنت أجد في ثغرها ، ابتسامة لا تغيب ابدا •

كنت في الوقت الذي عرفت فيه روزي قد تزوجت ، وأنجبت طفلين •• أخبرت روزي بذلك ، فقالت بفرنسية رقيقة « ليكن » ان الزواج زواج قلوب وعيون وشفاه قبل كل شيء • انت غير سعيد في زواجك فماذا يمنعك ان

تجد الراحة عند روزي ٠ هل اذا كتب عليك الشقاء في ناحية ، يحرم عليك ان تبحث عن السعادة في أي مكان اخر ؟٠٠ جرى هذا الحديث في طريقنا الى الجيزة ، لقد كنت أنا فقيرا ، وروزي فقيرة على انني كنت أستطيع بجهد ان أوفر شيئا من مكسبي لنزهة بتاكسي وجلسة بهذا المكان ، وأحيانا بمينا هاوس ولم اكن استطيع ان اذهب بها الى المحلات العامة كالسينما والمسرح خوفا من ان يرانا الناس ، فاذا قضينا سهرتنا البسيطة اخذت اتفقد ثيابها ، وزينتها فأجد دائما انه ينقصها شيء تحاول ان تستره بمهارتها ٠

فأقول لها برفق « روزي ، خذي هذا » ويكون هذا اخر ما وفرت واقتصدت ، وقد اكون حرمت نفسي من شراء شيء أحبه اسبوعا على الاقل ٠ كنت أسائل نفسي: عجبا لي أأنا معصوب العينين ؟ اني رجل متزوج ولـي أولاد ٠٠ وما أنفقه على روزي يجب ان انفقه على منزلي وأولادي فيجيب هاتف « انك غير سعيد ، ويجيب اخر ينبعث من عيني روزي « هنا وسادك وراحتك فادفع ثمن الراحة والوساد الهنيء » ٠٠ مرت ايام سعيدة ما أعرف ان مخلوقا ذاق طعم السعادة كما ذقتها مع روزي ٠٠ الى ان حدث ذات يوم ان اخلفت ميعادها ٠ فلما مللـــت

الانتظار قمت يائسا وبينما أهم بركوب الترام رأيتها في تاكسي مع شاب أجنبي • فكذبت نظري ولكن العجيب ان التاكسي حاول ان يعبر الطريق فكاد يصطدم بالترام فوقف برهة لم تدع لي شكا ان الذي به روزي وصاحبها ذهبت اليها في اليوم التالي في مخزن الادوية غاضبا أكاد أهم بقتلها ، وقلت « روزي •• من هذا الذي كان معك أمس ؟ » صاحت بغضب « أمس • لا أحد اني كنت مريضة » فصدقتها او غفرت لها لا أدري ، وقلت لا بأس متى أراك ؟ قالت « الليلة » والتقينا وكأن لم يكن شيء •

بعد ذلك أخذت تخلف مواعيدها ، وتعتذر ، وأنا أقبل وأغفر •• الى ان حدث ان لقيتها ذات يوم في هذا المكان الذي نحن فيه الان ، وكانت شاحبة اللون مريضة ، أخبرتني انها تميل للقيء وتشعر بأشياء غريبة في رأسها وقلبها • شعرت بكل آلام الدنيا تتجمع في قلبي اشفاقا عليها • وقد خيل لي لو أصابها شيء فاني لن أستطيع الحياة بدونها •

قلت في رعب وخوف هيا بنا يا روزي الى الطبيب فمانعت اولا ثم قبلت اخيرا • اخذ الطبيب يفحصها ثم عشى بي الى جانب وسألني هل السيدة زوجتك ؟ قلت

لا بل قريبتي ، قال هل هي متزوجة ؟ قلت « بل آنسة » فنظر الي بخبث وقال « دي اعراض حمل » فلاح لي في الحال شبح « الخواجا » الذي كان بجوارها في السيارة وكدت أصفعها لانها لم تكتف بالعلاقة البريئة التي بيننا ، بل سلمت نفسها لذلك الاجنبي الذي رأيته ٠ ولكنني لم أكد أفتح فمي غاضبا ، حتى وجدت سيلا من الاشفاق والرحمة والغفران يسبقني اليها ٠

قلت هيا يا حبيبتي ٠ وقلت للطبيب « اكتب لنا التذكرة اللازمة » فكتب شيئا طويته في جيبي ونزلت في صحبتها من العيادة ومررت في اليوم التالي لاراها بالمخزن ، فلم أجدها وعلمت انها في اجازة وطرت الى منزلها فأطلت أمها العجوز قائلة ان روزي سافرت في شغل ! ما أعجب الحب يا أصدقائي اني أحببتها بخيانتها وفقرها ، وكذبها ، وظللت أحبها ، وأحج الى هذا المكان لاتخيل مجلسها امامي ، وأتذكر صفاء عينيها ولطف حديثها ٠

الى ان حدث ان لقيتها أمس عند « زبونة » لي ومعها طفلان ، فلما سألت عنهما عرفت انهما ابناها ٠ فوقفت بباب البيت حائرا : هل أرجع اليها ؟ غير ان شبح الكرامة اعترضني فوليت مسرعا وأنا أمسح دمعة هي مزيج من الحب والاشفاق والغفران ٠٠٠ ثم سكت فتحي وصحنا جميعا في صوت واحد « ما أعظم هذا الحب » ٠

حب عذرى

كان الشيخ الوقور عثمان بك المنصوري يسكن بمفرده شقة متواضعة في العباسية • ولم يعد له في الحياة غير ابنه وزوجته وولدهما الصغير ـ شكري الذي كان يزور جده من آن لآخر فيلاطفه ويفاجئه بالهدايا •

كان عثمان بك يخرج في الصباح الى القهوة المجاورة فيجلس شاردا ينظر الى اللانهاية ويعود ظهرا ليتناول الغداء الذي يجهزه له خادمه • فاذا أتى المساء أدار الراديو ، ثم استلقى على كرسيه الطويل في شبه غيبوبة « استلقى يصغي الى أصوات بعيدة هاتفة من خلال الماضي » •

وكثيرا ما كان يطغى عليه وهن الشيخوخة فيذهب في اغفاءة حقيقية • تنيم ذكرياته جميعا • ويظل الراديو

دائرا حتى يدخل « عبده » الخادم فيغلق الراديو ويترك الشيخ مستلقيا حيث هو على كرسيه الطويل فاذا أقبل الفجر تنبه الشيخ وانتقل الى السرير ثم يقوم متأخرا ليتناول فطوره ، ثم يقضي يومه كما اعتاد .

وفي صبيحة يوم ، قرع الباب ودخلت بهيجة زوجة ابنه ، وصاحت متهللة « صباح الخير يا عمي » فأجاب « صباح الخير يا ابنتي كيف زوجك وطفلك » قالت « بخير » ثم شرد ذهنه ووقف عن الكلام فجأة ، فابتدرته بهيجة قائلة « ماذا بك يا عمي ؟ » قال : بعض اعياء . ثم استلقى على كرسيه الطويل .

كانت بهيجة مرحة تحب الحياة ولم تكن تحب الشيوخ وتعدهم جامدين قد تحجرت عواطفهم وكثيرا ما همت أن تسأل هذا الشيخ سؤالا واحدا يتحير على شفتيها ، وأخيرا صممت ان تسأله في ذلك اليوم فقالت فجأة « أما زال قلبك يخفق ؟ » .

اعتدل الشيخ في مجلسه وقد لمعت عيناه ... ولكنه أشار الى درج مكتبه وقال :

إفتحي الدرج الذي أمامك ترينه خاليا من كل شيء الا من ظرف صغير فيه صورة .

ففتحت بهيجة درج المكتب وعثرت بالصورة وحدها تحتل الدرج الخالي · فأخرجتها من الظرف وتأملتها انها صورة امرأة حسناء رائعة القوام والعينين ·

أطالت التأمل بها ثم قالت : ليتنا نعرف ماذا صنعت الايام بهذه الفتنة الخلابة والشعر الفاحم ، وهذه العيون الناضرة ، ليتنا ندري ، يا عمي منذ كم من الزمن تحتفظ بهذه الصورة ؟ وهل صاحبتها لا تزال حية ؟

أجاب الشيخ بغم : يا ابنتي انها على قيد الحياة ، ولكنها قد سافرت منذ ثلاثين عاما ، ولقد تزوجت انا بعد سفرها ، ومرت علي الحياة بظروفها وتقلباتها فما نسيتها يوما ، ان حياتي كهذا الدرج الخالي ليس فيها غير ذكرى واحدة ·· هذه الصورة ·· » ·

قالت بهيجة ضاحكة سأسمع منك يوما حكاية هذه الصورة اما الان فانك متعب ثم قالت وهي تستأذنه « اني مضطرة الى الرجوع الى المنزل الان ثم ودعته متهللة ، وخرجت مسرعة » ·

أمسك الشيخ بالصورة وقد خطر له خاطر عجيب خطر له ان يكتب خطابا الى صاحبة الصورة انه يعرف عنوانها · فأخرج ورقة وظرفا وتناول القلم ، وجلس يكتب ···

اخذ يكتب وهو لا يدري كم من الزمن قد مر عليه ، وكلما تعبت كفه الكليلة أراحها قليلا ثم عاود الكتابة . وعندما أقبل المساء كان قد شعر بتعب شديد .فأمسك بقلبه وهو يتألم ألما مبرحا . وسار حتى النافذة وأزاح الستار قليلا فرأى من المناظر ما يراه كل يوم .

شعر بالالم الشديد يعاوده وهو لم يكمل الخطاب بعد . لم يبق غير بضعة أسطر ثم الظرف ثم العنوان ثم طابع البريد ثم يدعو عبده ليسلمه الخطاب لالقائه في صندوق البريد . فقال في نفسه : يا رباه اتطول الحياة كل هذا الطول وتقصر عن تحبير بضعة أسطر وعنوان .

وفعلا قصرت الحياة عن هذه الامنية الصغيرة فان الشيخ لم يكد يعود لتكميل الخطاب حتى هوى رأسه وفي تنفسة واحدة خرجت روحه من اعماق حياته .. خرج كل شيء وانتهت المرحلة الطويلة الشاقة من العمر المكدود .. ودخل الخادم « عبده » كعادته كل يوم ليغلق الراديو ويطفىء النور . وليتفقد حاجات الشيخ ، فوجده هكذا مكبا ، فقلبه فاذا هو لا روح فيه . فصرخ جزعا . ولم يدر في فزعه ماذا يفعل غير ان يصيح بجنون : سيدي . سيدي عثمان بك . آه يا سيدي وانفجر باكيا.

ثم انطلق شبه مجنون الى منزل ابنه مجدي ، ولم يكن بعيدا كثيرا عن هذا المكان فأذاع الخبر وعـاد بالابن وزوجته ، اللذين لم يتمالكا دموعهما عندما رأياه مطرقا اطراقة الموت •

قالت بهيجة « لقد رأيته اليوم وهو في أحسن حال ، أتراني قد جنيت عليه •• لقد أخذت أحادثه عن الحب والعواطف ، واتهمه واتهم الشيوخ بالخمول •• حتى أشار الى هذا المكتب ففتحته فوجدته خاليا الا من صورة امرأة •• ثم صاحت : آه هذه هي الصورة » ثم التفتت الى الورقة التي أطرق فوقها الشيخ وقالت « ما هذا •• خطاب لصاحبة الصورة » ••

تناول مجدي الخطاب وأخذ يقرأه بصوت متأثر ••

سميرة •••

وتوقف مجدي قليلا وأخذ يتذكر بجهد •• سميرة ؟ ان هذا ليس إسم أمي وما كنت اعلم ان في حياة أبي أحدا غيرها ، ان المسكينة كانت تشعر بهذا وكانـت تحس من طرف خفي • وقال : كم في الحياة من اسرار يموت اصحابها وهي مطوية في صدورهم •• ثـم عاد يقرأ ••

« وعندما سافرت فجأة منذ ثلاثين عاما أخذت كل

شيء في حياتي معك ٠٠ سارت الدنيا جميعها في ركابك وأنا أودعك عن بعد ٠٠ آه يا سميرة لقد تزوجت بعد رحيلك وعشت حياتي في هدوء وسكون ٠ ولكن كم من هدوء وسكون كانا كهدوء المقبرة وسكونها ٠٠ أتذكرين يا سميرة كيف أحببتك وأحببتني ؟٠٠ كان الفارق بين عائلتينا كبيرا ٠ وكنت في نسبك وجمالك عظيمة لاخر مدى العظمة ٠٠ وكنت انا حين التقينا في نادي الضباط ، ضابطا صغيرا مكتئبا حزينا ٠ فنظرت الي نظرة عطف واشفاق ٠٠ وأوحت عظمتك انك تستطيعين ان تجعلي هذا الضابط سعيدا وعظيما عن طريق الصداقة العالية والالهام الرفيع ، وكنت واثقة من نفسك تمام الثقة تعرفين ماذا تمنحين ولمن ؟ ولذلك لم تترددي في السؤال عني والاتصال بي ٠ اما أنا فقد كنت غرا اول الامر أحسب انك سحرت بجمالي ورجولتي ٠

آه يا سميرة ٠٠

هل تذكرين حين ركبنا عربة تمشي بنا وئيدا في طريق الهرم ٠ شعرت يوم ذاك بجسد الانثى الموفورة الانوثة ٠ شعرت بعطرك ٠٠ شعرت بأن الحب الروحي الذي تدينين به يجب ان يتلاشى على قنطرة الجسد ٠٠

فمددت ذراعي أطوق خصرك فلم تمانعي ، وشعرت بك تضعفين أمامي • فأخذت انظر على ضوء القمر الى ثغرك الذي لمع في نظري كنجم منفرد صغير وفكرت في امتلاك هذا النجم •• فاذا بك تصيحين فجأة « عثمان مـاذا يدور ببالك ؟ » وباعدت نفسك عني ••

قلت في اضطراب : ألست تحبينني يا سميرة ؟

قلت سأحبك حينما تفهم انني أريد ان اخلق منـك انسانا كاملا ، فأكبرتك اذ ذاك • وخيل لي انك بعيدة بعد القمر ، فصمت ولم أجب ، وعادت العربة بنا الى انوار المدينة وودعتك وأنا مخلوق اخر •• فأخذت اعمل لاكون جديرا بك • ولكن واأسفاه •• لم يمهلنا الزمن فقد سرت في مصر كلها أنباء تلك الفضيحة العجيبة التي انغمس فيها زوجك لاذنيه ، واضطر بسببها ان يهجر مصر كلها وقد خسر ماله واسمه •• فلم يشأ قلبك أن تدعيه يسافر وحده •• هل تذكرين يا سميرة ملتقانا قبل سفرك في القهوة الصغيرة التي على النيل •

سميرة •••

اني متعب الان خائر القوى اني لا أستطيع ان أتصور

ان شيئا من جمالك قد ذبل أو تغير ٠

الى هنا انتهى الخطاب ٠٠

فقبل الابن جبين ابيه باحترام والتفت الى زوجتــه قائلا آه لو كنت أدري اين هي ومن هي ٠

قصة مجاهد عربي وزوجته

ان زوجة العبقري لها شأن خاص غير باقي النساء في العالم . ان مهمتها لشاقة وانها لتتحمل في سبيله وفي سبيل السهر على راحته من المشاق ما تنوء بحمله الجبال · فلقد تكون حياة هذه الزوجة ـ زوجة العبقري ـ ضربا من الجحيم · ولكنها تتحمل ، ولا تبالي ان تخوض جهنم كلها في سبيل رجلها · وقديما قال لبروزو في كتابه « العبقري » ان العبقري قد يكون له من الشذوذ ما يجعل هذا الشذوذ قريبا من الجنون · ولكن كم من نساء عظيمات ضحين بكل مرتخص وغال ، فغضضن الطرف على هذا الشذوذ وتحمسن لمبادىء رجالهن وعاونهن معاونة جدية ·

فلقد كانت « زينب » زوجة لجندي مجهول من جنود

الرسول صلى الله عليه وسلم تبع الرسول وآزره في دعوته · وقبل انتشار الدعوة وتحمل معه كل ما عاناه من المشاق في سبيل الاسلام · وكانت هذه الزوجة المخلصة تعتقد في صدق الدعوة · وتؤمن بنجاح الرسالة ولذلك كانت تحث زوجها وتشجعه · ذلك هو الجندي المجهول : الذي سخر كل عبقريته لخدمة الرسول ولعل « زينب » من الصنف الخيالي الذي يؤمن فيعمل ، هؤلاء خلدن أسماءهن على الزمن وخاصة اذا كانت امرأة كزينب ، تعيش في القرن السادس وقد تعودت حالة خاصة من الطاعة والخضوع ·

ان زينب سمعت بالمعجزات التي صاحبت ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، سمعت بها وتأثرت بها ، وآمنت بصدقها ، وكيف لا تؤمن بهذا اليتيم الذي كفله عمه أبو طالب ، حارس الكعبة ، وسيد قريش الذي كانت قوافله تجوب الصحراء رائحة غادية · ذلك اليتيم الذي سرعان ما ظهر نبوغه المبكر وعظمته المنبثقة في ثقة الناس به ، وفي اصطحاب عمه اياه في رحلاته ،والصبي العظيم يسأل عن هذا ، ويعلق على ذلك تعليق العقول الجبارة ، ويظهر ظمأ عظيما للمعرفة · وذكاء لماحا لماعا ، يدرك كل شيء ، ويسع كل شيء كان العم يأخذ ابن

أخيه الى أي مكان يكتسب منه خبرة أو معرفة ، فمن اسواق التجارة الى ندوات العرب ، حتى الى صوامع الرهبان • ولقد كان هؤلاء الرهبان يذهلون لذكاء الصبي الملهم ، ويحيرون لسعة ادراكه على صغر سنه ، وقصة الراهب بحيري معروفة للجميع ، ولقد كان رائع المنظر رائع التكوين ولا عجب فان أمه وأباه اشتهرا بالجمال الفائق حتى ان أغلب فتيات قريش كن يتمنين الزواج بأبيه ، ولقد تقطعت قلوبهن حسرة حين لم يكن الزواج به من حظهن •

هذا الى ان عقل محمد الجبار وعى كل هذا ، وهو أمي ، لا يقرأ ولا يكتب هناك في هذه الاسفار ، حيث كانت زينب تصحب زوجها ، سمعت عن محمد ثم رأته ثم آمنت به وحثت زوجها على الايمان به والدفاع عنه ، اما هذا الزوج فانه آثر ان يظل جنديا مجهولا لتكون البطولة أتم والرجولة أكمل •

مرت فترة قبل البدء في الدعوة ، ومحمد يشتغل بالتجارة وأيما عمل وجه فكره اليه ، كتب له النجاح والفلاح ، ولقد أخذه أحد أعمامه لغزوة من الغزوات ليحمل الدروع للجيش • ومع انه لم يكن له من قبل عهد بذلك • فقد قام بمهمته خير قيام • ولقد كان يبدو

للناظر انه يسير في اعقاب عمه أبي طالب • ولكن الحقيقة انه نضج وصار عقله الملهم يفكر في الدعـوة للدين الاسلامي ، الذي هو خاتمة الديانات وقد شغله التفكير العقلي عن التفكير في الزواج ، حتى كـاد يبلغ الخامسة والعشرين فرأت زينب وزوجها ، وقد أخـذا يتشاوران فيما يجب ان يقدما لمحمد • فقالت زينب ان أصلح شيء ان ندله على امرأة عاقلة تفهم مقدار العبقرية وتدري كيف تعنى بالنبوغ • ألا وهي خديجة • فأرسلت اليه من يسر له ان خديجة التي فقدت زوجها ، في حاجة لمن يحرس أموالها ، ويسهر على أعمالها ، وكانت شهرة محمد في الامانة والصدق قد انتشرت • وشهرة خديجة الزوجة فاضلة شريفة عاقلة مدبرة قد ذاعت بين الخيام كذلك فكان النقاء للاتفاق على أجر نظير ما سيقوم به محمد من الخدمات ولكن خديجة سرعان ما أدركت أمـام أي شخصية عظيمة هي الان • وهو من ناحيته أعجـب بالكمال والوقار والعظمة في مظهر خديجة • ولم يتم في اللقاء الاول غير ذلك الاعجاب المتبادل • وزادت ثقة خديجة بوكيلها فأخذت تضاعف له الاجر مرة وثانية وثالثة • وكان الوكيل أمينا حازما ، فتقدمت تجـارة خديجة ونجحت • وكلما مر الزمان بدا لخديجة عظمة

محمد في ضوء جديد ، وسعة علمه الغزير ، وادراكه الرائع ، وزيادة على ذلك فانها اخذت تطلع على دخائل نفسه وكلما اطلعت عليها زادت ، به ايمانا .

ويظهر ان خروج القوافل وعودتها مما يثير اهتماما خاصا ، فقد كانت زينب التي صارت لا تفارق خديجة تنتظر عودة القافلة وبين سرورها واغتباطها تكون اول من يبشر خديجة بقدوم محمد ولقد حدث ذات مرة ان زينب رأت بعين خيالها جناحي ملك يظلان القافلـــة فصاحت بخديجة انظري ، ملك يظل القافلة بعد هذا الذي رأت خديجة وسمعت . صار اعجابها بمحمد لا حد له . وما لبث الزواج ان تم وتحقق اسعد حادث فــي تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم . ولما كان محمـــدا فقيرا . فقد كان الزواج من امرأة غنية مثل خديجة أمرا قد يلوح صعبا في أوله ، ولكن ثقة خديجة بمحمد ، وايمانها الخفي بأن هذا مبعوث من لدن قوة سماوية . ثم ما رأته من معجزاته ، كل هذا سهل كل صعب ، وعبد كل عسير . وخاصة عندما تعلم ان زينب وزوجهـــا ، اللذين رافقاه في أسفاره ، وكانا الواسطة الخفية بين اثنين . كل منهما جدير بالاخر كانا كثيرا ما يتحدثان – كل من ناحية – في صفات الطرفين – حتى صار هذا

الزواج أمرا واجبا ٠

ولقد كان والد خديجة ممانعا في أول الامر ولكن خديجة أرغمته على الموافقة وسرعان ما احتفل بذلك في مهرجان فخم ، وذبحت الذبائح ووزعت الصدقات ٠ ومرت الايام والقوافل تروح وتغدو ٠ ومحمد فرح بعائلته سعيد موفق في تجارته ٠ سعيد بصديقه التاجر ، زوج زينب ، الذي لازمه وآمن به قبل الدعوة وكان يشعر إنه في حضرة أعظم شخصية في التاريخ ٠ الى ان أتى اليوم الذي صار نشر الدعوة فيه أمرا لا يخالف حكمه ٠ في هذا الوقت كانت عبادة الاصنام قد انتشرت والضلال قد عم فكان الوقت ملائما لعمل انقلاب ، لنشر الدين الحنيف الذي يدعو الناس الى اله واحد ٠ وقد انتابه من الفكر والارق وحب العزلة قبل اعلان الدعوة ما جعل لياليه سهدا وأرقا ٠ ومع ذلك فقد كانت مستعدة دائما، للتضحية بمالها وجاهها ، لتصحبه اينما سار وتتحمل معه كل ما يلاقي من العناء ٠

أتى الوقت لنشر الدعوة ، فثارت قريش وصار أهل قريش يطاردون النبي صلى الله عليه وسلم ، ويضربونه بالحجارة ويصيحون في وجهه ، فكان صديقه الذي آمن به قبل وقت الايمان ، وزوجته زينب يقفان في وجوه

المعتدين ويتحملان عن النبي كل أصناف الاذى ، وطالما سهلا باخلاصهما انقاذ النبي ، فتعرض الجندي المجهول، لاشد صنوف البلاء ، حتى لقد اختبأ ذات يوم في كهف أثري ، يقال ان خيال آدم وحواء يظهران فيه من آن لآن ٠

كم من بطولة مجهولة ، في تاريخ العرب لا يـزال يكشفها التاريخ صفحة صفحة ، أليس من الرائع أن يحس القلب بعظمة شخص ، فيظل يؤمن بها حتى تنبثق عن حقيقة ٠

على سفح المقطم

تمدد « عكرمة » الشحاذ ذو الساق الخشبية على التل الجاثم في ظلال المقطم بعظمة ومد عينيه في الليل المخيم على الصحراء كأنه يحكم هذه البقاع الصامتة ٠ ولماذا لا يكون حاكما على هذه المملكة ، وهو ينام على هذا التل عشرين عاما ، ويتصرف في هذا الظلام المبهم آمرا مطاعا ؟ لماذا لا يكون حاكما ، وقد نحت لنفسه على هذا التل مكانا احتفره بجسده يوما حتى صار لا يتسع لغيره لو حاول المبيت فيه ، ومن هو ذلك الذي يبيت فيه غيره ، من يجرؤ ؟

لقد حاول ذلك مرة عبد الكريم سنبو المجرم الفار من الليمان فحل عكرمة رجله الخشبية وضربه بها ضربة واحدة صرعته ، ولقد دفنه في الرمل بيديه ٠ ولم يعلم

بذلك أحد غيره ، وغير السماء المطله على ماتم لا عداد لها ٠٠٠ ولقد قهقه عكرمة ضاحكا وهو ينفض يديه من رمل عبد الكريم ويعود الى عرشه على التل ٠

استلقى عكرمة ، وقد أحس بحركة غير عادية تلك الليلة فحل ساقه الخشبية وجعلها بجانبه حرصا وحذرا، ان مكانه آمن من مفاجآت البوليس : بعيد عن أعين الرقباء لا يعرفه الا الهاربون من الليمان والخائفون من مطاردة البشر لهم ٠ وكثيرا ما التقى على هذا التل شحاذو القاهرة وجامعو أعقاب السجائر ، وبائعو اليانصيب ٠

ولقد عقدوا ليلة سمر هائلة ، كان لديهم « قلة زبيب » سرقها عكرمة من حارة في شارع كلوت بك ٠ ورغيف رومي كبير سرقته أمينة جامعة أعقاب السجائر من فرن في القللى ، وكانت المزة « لب أسمر وفول سوداني » تبرع بهما عصفور البويجي الذي سرقهما من مقلاة في السيدة زينب ٠ كانت سهرة حقيقية غنت فيها أمينة « على بلد المحبوب » وأخذ عكرمة يرسل النكتة وراء النكتة ويشتم هذا ويلعن ذاك حتى شعر انه ملك حقيقي ٠ ثم دار برأسه الزبيب فأخذ يثرثر ويكذب ويدعي ، صاح بهم : « تعرفوا يا كلاب » وأدار طرفه فيهم باحتقار ليشعروا أنهم كلاب حقيقة ، أنا يوم كنت

باشتغل ساعي في الحكومة وكان، عندي جاكتة وبنطلون »
فقهقهت أمينة ساخرة وقالت وايه يعني « أنا مرة رحت
فرح ولبست الفستان القصب بتاع ستي لما كنت خدامة
في بيت واحد باشا » ٠

فصاح عصفور البويجي وقد قرع على صندوقه يدعوهم
للصمت « عس ٠٠ أنا بامسح جزمة لاظو غلي قبل ما
يعملوا له تمثال في المالية » ٠

شعر كل منهم في تلك الليلة انه حر يتهكم كيف
يشاء ٠ ويتخيل كما يشاء ٠ لم لا ؟ أليس بعيدا عن
مطاردة الحكام ؟ بعيدا عن سخرية الناس ؟ أليس له
الحق في أن يغني فلا ينتقده أحد ٠ ويكذب فلا ينتقده
أحد ٠ أفلم يشرب زبيبا ٠ ويأكل خبزا ٠ وماذا يصنع
أحسن الناس أكثر من ذلك : ثم ها هم سينتشرون حول
التل ٠ حول عرش عكرمة الشحاذ وسينامون نومة
هادئة ٠ ورؤوسهم ثقيلة وأجفانهم مطبقة سيقضون ليلة
ينسون فيها ما ينتظرهم غدا من عناء وكفاح ونصب ،
سيقضون ليلة أصابها ما أصابهم من الاعياء حتى نسيت
هي غدها ٠ ومن يدري ربما لم يكن لها غد ٠٠ من
يدري ربما كانت الليلة الوحيدة ٠ وقد مات غدها ٠٠

إنقضت الليلة أو كادت وقد وقفت قلة الزبيب وحدها

خالية لاخر قطرة • وتمددوا حولها شهودا على ما صنعت بهم •• وقد اختفى كل أثر للرغيف ، وطلع القمر وكان في أوله ، فأنار بقعة صغيرة فيها قشر فول سوداني ولب وشيء أشبه بفتات خبز قديم ، ثم سحب ذيله على تلك البقعة الصغيرة فطواها فاختفت في خلال التلال •

منظر عجيب منظر أولئك المنفيين والمطريدين • ها هي « كومة » من الشقاء الادمي كومة خدرت اعصابها ، فثقل عليها الخمر أو ثقل عليها الشقاء فلم يعد يسمع لها غير موسيقى أفواه تعسة وحناجر شقية . وكانت الحفرة التي يحتلها عكرمة تعلو سفح التل قليلا ، فتوسدها فاذا بها كأنما فصلتها السنون له • وظهر القمر مرة اخرى وألقى ضياء طفيفا على عكرمة وساقه الخشبية ، ثم خجل فلم ذيله ، ومضى الى مكان اخر من الوجود • لم يستطع عكرمة الاسترسال في النوم كان يحس بشيء غير عادي • كان يسمع صوت اقدام آتية من بعيد ، فيغالط نفسه ، فيحاول النوم ولكن هاته الاصوات كانت تخطو لا على الرمل بل على قلبه ، كانت نفسه تحدثه ان هذه اخر مرة يتوسد فيها هذا المكان العزيز على نفسه ولكنه كان يفكر : من الذي يجرؤ على المجيء ، لقد مرت السنون وهذا التل خاص بفئة عرفت

الامن في ظله ، والراحة على سفحه ، ان رجال الامن على سهرهم ويقظتهم لم يصلوا الى هذا المكان ، وحتى دورياتهم التي تعبر الصحراء ، لم يخطر لها أن تتحسس هنا ..

عاد عكرمة للنوم ، ثم عاوده القلق ، وخطر له أن ينحدر ليوقظ أمينة جامعة أعقاب السجائر ، فانه يعرفها جريئة ماكرة ثم فكر انه من العار أن يستنجد بامرأة ، ولكن الانسان عند المخاوف المبهمة يتعلق بأي شيء فترك مكانه ، وانحدر الى اسفل ، وانتظر حتى يطلع القمر ، فتبينت له أمينة كالجثة الهامدة ، فلكزها بيدهفاستيقظت مذعورة وصاحت : « عكرمة جرى ايه أوعى .. يا مجرم » وقد ظنت انه يريد بها أمرا ، فهمس كالمحموم : « اسمعي » فأصغت وقالت : نعم .. صوت أقدام آتية .. لا بل حوافر خيل أو حمير . وما هو الا قليل حتى تبين ركبا يأتي من بعيد : قوما يحملون فؤوسا ، ومعهم مشاعل « يحرسهم البوليس » ومعهم أفندية ، انهم يبحثون عن شيء ، يتبعون خطا ويهتدون بالمشاعل ، على رأس هؤلاء الافندية أفندي أنظف من الباقين وهو الذي يقودهم ويرسم لهم الطريق . ما زال الركب يقترب حتى بلغ التل ، فصاح البوليس بالراقدين

« قوموا » وأدار الجاويش كرباجه فيهم ضربا فهبوا!!
مذعورين وطار النوم من أجفانهم ، لقد حسبوا ان البوليس،
يهاجمهم ، فأخرج أحدهم مدية وأخرج الثاني شيئا!
أشبه بماسورة حديدية ، واستعدوا للمعركة غير ان،
البوليس صوب اليهم مسدساته مهددا ، وصاح،
الباشجاويش قائلا « يللا من هنا احنا مش عاوزين منكم،
حاجة احنا عاوزين الرملة دي ٠٠ » فتألم عكرمة ألما مرا!
وهو ينظر الى البقعة الوحيدة التي مكنته ان يريح جسده،
المتعب عليها ، ونظرت أمينة الى سفح التل حيث اعتادت،
من حين لحين أن تلقي بجسدها الكليل ٠

تباعد الصعاليك قليلا وهم يتعجبون لماذا تريد
الحكومة هذا التل بالذات ؟ أليس لديها القصور ، أليس
لديها العمارات الفخمة ٠ ووقف عكرمة مندهشا وهو
ينظر الى الافندي النظيف وقد جلس قرب الحفرة
المشهورة ٠٠ وفتح « خارطة » ثم قام وهو يصيح ظافرا :
وأشار الى الحفرة بالذات ٠

وبعد قليل أخذت الفؤوس والمعاول تضرب في تلك
الحفرة ، وتهيل التراب على جانب وتخرج الصخور
فتلقيها على جانب اخر ٠٠ كل ذلك وعكرمة يراقب
وينظر لعله يعلم لماذا يصنعون بمأواه كل هذا ، لماذا

يهدمون سريره لماذا يعتدون عليه كل هذا الاعتداء ·

وظل العمل يدور طول الليل ·· والفؤوس تهوي والمعاول تضرب والتراب يهال والصخور تتراكم ، حتى أوشك الفجر ان يطلع ·

وقد تمدد عكرمة أعياء ، ليشاهد نتيجة كل هذا الاعتداء الصارخ وتمددت أمينة جامعة اعقاب السجائر وقد غفل البوليس عنها وعن باقي الصعاليك بالعمل الذي وكل اليه ·· وعندما همت تباشير الصبح ان تبدو وسمع عكرمة الافندي النظيف يصيح « برافو » وهو يقلب أشياء معدنية يسمع رنينها عن بعد · لم يطق عكرمة صبرا ، فزحف الى حيث الباشجاويش وقد جلس في جانب وأشعل سيجارة ، دنا اليه متذللا ، وقال : « وحياة أبوك تقول لي لقبتم ايه » ·

قال الباشجاويش ضاحكا « تعرف الحفرة اللي كنت بتنام عليها ·· تحتها فلوس ذهب كان السلطان قلاوون مخبيها وسيدنا الافندي بيقول دي يمكن توصل لحد ميت الف جنيه ، هاها · ودوت قهقهة في اذن الصباح الجديد وأخذ عكرمة ساقه الخشبية ، وفي يده أمينة جامعة الاعقاب ليفترشوا أفاريز الشوارع ·

الضمير

حدثني صديقي الطبيب وهو ينفث دخان سيجارته ، قال : في سنة ١٩٣٢ كانت الحمى المخية الشوكيـة منتشرة في مصر انتشارا مريعا ، وقد ذهب كثيرون من أعزائنا ضحية لها . مدت جناحيها على القطر كعقاب كبير مخيف ... كغمامة قاتمة تنشر ظلا تسري فيه أشباح القلق والرعب والظنون ، كانت عدوا أخذ الناس على غرة .. كانت لصا يتسلل لبيوتهم وسرق أعز ما لديهم ، كانت ريحا كئيبة هبت عليهم لا يعرفون من اين ولماذا .

وكانوا يجهلون أعراضها بالرغم من نشرات مصلحة الصحة ، فمن شكا صداعا حسبها هي ، ومن أصابـه زكام تمثل له شبحها ، ومن مر به أي عارض من الالم أسرع الى طبيبه قلقا مرتاعا .

أما الفقراء ، أما أولئك الذين ليس لهم أطباء ولا ما يوصلهم الى الاطباء فقد اجتاحهم السيل وجرفتهم العاصفة .

ثم ضحك الطبيب ضحكة رقيقة وقال يا ترى هل كان يعنينا الشاعر بقوله « مصائب قوم عند قوم فوائد » ؟ فقد تزاحم المرضى على بابي وصرت أرى الوجوه التي انقطعت عن زيارتي طويلا . كان الناس يتوهمون المرض ويرون خيال الحمى الشوكية في كل طارىء تافه فيهرعون الي راجين الطمأنينة والامان ولا انسى ما حييت مساء مليئا بالحوادث . تأخرت عن موعدي العادي في استشارة بالزيتون وعدت فوجدت خلقا عديدين ينتظرون ، بعضهم يتطلعون من النافذة يترقبون قدومي، واخرون يسألون التمرجي الف سؤال في الدقيقة هل أتأخر طويلا . انهم يتألمون ان لديهم شغلا واخرون تعودوا الانتظار فمرت بهم ساعات في غير ملل واخرون تركوا مقاعدهم ووقفوا في البهو ليحيطوا بي عند قدومي ويمطروني وابلا من الاسئلة ، ويقتحموا باب غرفتي الخاصة ، دخلت مسرعا وأعطيت حقيبتي للتمرجي الذي تلقاني مقطبا وفي نظرته عتاب صامت وهو لا يدري ان الحوادث تألبت علي وتحالفت على أن تؤخرني عن

مرضاي بكل الطرق ، فقد طالت استشارة الزيتون بغير مناسبة ووقفت السيارة مرة لحادثة في الطريق ، ومرتين « للكاوتش » الذي بقي في حفظ الله وصونه عامين ولم يشأ ان يفرقع الا في ذلك اليوم ٠

دخلت البهو عدوا فاذا الدكتور « صبار » بين الواقفين في البهو فمشى الي في قلق مزعج وصاح بي وقد نسي ان يصافحني : « عاوزك حالا تشوف ابني » ٠

فسمع الحاضرون هذا القول وسرت موجة من التذمر والسخط سرت من شخص لاخر كما تلقي حجرا في الماء فينداح دوائر في لجج متعانبة ، أما أنا فحرت بين الوفاء للصديق وبين ذلك البحر العابس القلق المنتظر على اني قلت الا يمكن ان تصبر قليلا ، صاح مضطربا انها حمى شوكية انه ابني الوحيد ٠

عند ذلك التفت للتمرجي في حزم وقلت يا زكي انا ذاهب مع الدكتور صبار وسأعود بعد قليل فمن له رغبة في الانتظار فلينتظر وأخذت صديقي الدكتور من ذراعه أسحبه سحبا وفي برهة قليلة وقفنا عند باب منزله ٠

كان الدكتور صبار زميلا لي في مدرسة الطب وكنت أحبه ، أحبه بكل عيوبه ٠ لقد كان غبيا غباوة كاملة

وكان بخيلا ضيق الجبين حريصا حرصا معيبا ، وكنت أجد عناء هائلا في ان أشرح له أبسط المسائل ، ولا أزال أكرر في اليوم ما حفظته اياه أمس ولا أزال أعيده له حتى اذا استيقنت انه حفظه تركته ، فاذا عدت أسأله لم أجده يعي شيئا · وكان شديد الجلد على القراءة والدرس متين الجسم وافر القوة يذاكر اضعاف ما نذاكر ، على ان المسكين كان دائما في اخر قائمة الناجحين لم يتخلف مرة عن هذا الترتيب ولكني كنت أحبه لانه كان لا يكذب ولا يرائي ولا يداجي ، كان اخلاصه نادرا فقد كنت أقسو عليه في غير هوادة ولا رفق ، فيعبس قليلا ثم تنفرج أساريره ولا تمر غمامة واحدة بقلبه الصافي الطيب ·

على ان من أعاجيب الزمن انه بعدما تخرج كلانا وأتاه الحظ ، والحظ لا شأن له بالمواهب فجمع ثروة طائلة في سنوات قليلة ، وكان كلما لقيني ضحك قائلا :

« وعملت ايه بشطارتك » اني اعالج كل شيء بسلفات الصودا والكينا والكونياك ·· كل شيء ·· كل شيء · وأنت تعالج بأحدث الادوية · مسكين يا بني · وتزوج من فتاة من عائلة كبيرة وما زال يقتر عليها في الانفاق

حتى قضت نحبها في عام زواجها الاول تاركة غلاما هو بطل قصتنا اليوم ٠

وقفنا أمام المنزل الفخم الذي اشتراه الدكتور صبار « لقطة » بثمن بخس غير معقول ودخلنا على أثاث فخم ، دخلت له به العروس الشهيدة ، وكان الطفل نائما حين دخلنا وقد وقفت بجواره خادم قذرة استجلبها « صبار » من « البلد » لتقوم بخدمته وطفله على كل حال ٠٠٠ أما أنا فذعرت حين رأيتها ٠ ذعرت لان أم مصطفى القذرة تقوم على تمريض طفل مريض بالحمى الشوكية ، على اني كظمت غيظي ٠

استيقظ الطفل عند دخولنا وبكى وصاح بأبيه ـ فجرى اليه صبار وثبا وأنا والد أعرف ما هو الطفل عند أبيه ٠ أعرف انه بضعة منه انفصلت وصار لها وجود وبقيت متصلة بروحه لا بجسده ٠ فاذا تألمت لم يشعر بعذابها في جسمه بل في صميم روحه فطفر الدمع الى عيني ونسيت ان اشتمه لاجل الخادم القذرة ، وقمت لفحص الطفل فلم أترك صغيرة ولا كبيرة الا كشفتها وأخيرا علتني صفرة الوجل وخانني ثباتي وتخاذلت أعصابي ٠ اذ لم يكن لدي شك انها هي الحمى الملعونة ومن نوع خبيث قاتل ، حرارة كالاتون المتقد

وقلب ضعيف وظهر لا لين فيه كقطعة الحجر الصلد ، وقيء مستمر وعنق الى الوراء في تصلب ·

صاح صبار وقد رأى فزعي « ما فيش فايدة فيه » قلت : وقد تمالكت شعوري أم مصطفى ما تنفعناش ، عايزين ممرضة في الحال · فلاح له خيال الممرضة التي ستتقاضى جنيها في الليلة ووقف شبح البخل حائلا فلم أرد أن أضيع الوقت في الجدال وقلت وأنا سأدفع لها حسابها اذ لا فرق بيننا فانبسطت أساريره وقال احنا واحد ·

وجاءت الممرضة وسهرنا عليه وحالته تزداد سوءا · أعطيناه المصل · وبذلنا كل ما وصل اليه الطب قديما وحديثا ولكن الحمى كانت طاغية ·

وكان غلاما ظريفا ورث كل ما كان في أمه من رقة · كان عندما تشتد الحمى يخيل له ان عدوا يخنقه فيدفع بيديه ، وتدور عيناه في محجرين حائرتين ، وكان يحسب اننا نحن الذين جلبنا له ذلك العدو · فيعبس في وجوهنا ويأبى ان يكلمنا · وما زال المرض يطغي ونحن نضاعف الجهد الى ان جئت ذات ليلة كعادتي أعوده فوجدت « صبارا » كالهيكل المحطم استرخى جسده الجبار وظهرت زرقة تحت عينيه كالسحابة

تستجم المطر • على اصفرار كورق الخريف الحزين •
بصرت بالطفل يتشنج تشنجا غير مألوف فيما اعلمه
عن أمر الحمى الشوكية صحت ـ لا ـ هذه ليست
تشنجات تسمى الحمى الشوكية كلا وصحت بأعلى
صوتي غاضبا جزعا « صبار ماذا فعلت يا تعس هذا
تسمم بالاستركنين هل أعطيته خطأ • أجب ، أجب
في الحال ، فأجابني بصوت كفحيح الافعى « جرعته السم
لاريحه من عذاب لا فائدة فيه » فلم أنبس بحرف واحد
وتركت المنزل كأنما اهرب من حريق يلتهمه •

وفي اليوم التالي مرت جنازة صغيرة من تحت
نافذتي وبعد اسبوعين استدعيت لاعود صبارا فوجدته
يهذي قائلا « يا أبي لم قتلتني » •

وعلمت من أقاربه انه بعد موت طفله استدعي لحالتين
شبيهتين بحالة الطفل تماما وعندما وصلا الى اليأس من
الله عليهما بالشفاء فصار صبار كلما نام زاره طفله
مرتديا ثوبا ابيض وصاح : يا أبي لم قتلتني فما لبث
صبار ان جن وصار يصيح : يا أبي لم قتلتني والذي
يزوره في مستشفى المجانين يجد شخصا ناحل الجسم
برزت عظامه ولا يفتأ يردد يا أبي لم قتلتني •

وفـــاء

أشرف الدكتور جريس على الكبر . وشعر بدبيب الضعف في جسده الذي كان قويا . وبالبرودة تسري في دمه الذي كان حارا ! وكان عادة يستطيع أن يميز عن بعد ما يكتب بالاعلانات الكبيرة التي تلصق بالحائط المواجه لشرفة عيادته . فاذا به ذات صباح يجد الحروف قد اختلطت عليه . وقبل ذلك بأيام لاحظ تخلخلا في أسنانه الامامية . فأيقن انه ينحدر في درج العمر . وأوشكت ان تخذله فلسفة الصبر الذي كان سنـــده وعماده في حياته منفردة موحشة كئيبة أصدق أصدقائه فيها الفقر . وألزم له من ظله . حظ بخيل معاكس . فقد جرب بلدا بعد بلد . وحط رحاله في قرية بعـــد قرية . وحاول أن يهرب من آفتيه الفقر والحظ النكد . فلازماه وعششا حيث ألقى عصاه .

وكان يصيح كلما خلا الى نفسه « لا فائدة . لا فائدة » وجعله الفقر يجتنب الناس . وجعله اجتناب الناس أشد فقرا . فصارت المسألة « حلقة قبيحة » كما يقول الاطباء ... الفقر يجر العزلة والعزلة تجر الفقر وكلاهما يجلب الحظ النكد ! نعم أشرف على الكبر . ولم يتزوج بعد . لانه لم يستطع . وكثيرا ما أراد ذلك . كثيرا ما تمنى يدا رفيقة تجلو عن معدنه صدأ السآمة . وقدما مباركا تخطو في البيت الكئيب الصامت كثيرا ما تمنى . ولكن . « لا فائدة . لا فائدة » كانت . « لا فائدة » كلمة تتردد ثم صارت صوتا يرن . ثم صارت مطرقة فوق سندان . انه لا يستطيع ان يدفع أجر التمرجي . ولذلك طرده منذ ايام . وصار يعالج اموره بنفسه . يغلق النافذة في الصباح ليكنس وينظف سريره ثم يصنع لنفسه فنجانا من الشاي . وينظف البذلة القديمة الرثة ، ثم يرتديها ويفتح النوافذ وينتظر الزبائن الذين لا يجيئون أبدا . فاذا حل الظهر خرج يتوكأ على عصاه حتى يبلغ المطعم الرخيص الذي اعتاد ان يغشاه منذ ان حل في ذلك الحي ... وكان صاحب المطعم يعرف ان الدكتور « راجل طيب » يدفع حين يستطيع . وقد رأى منه ذلك بضع مرات فوثق من ذمته .

واذا جاء المساء ، جلس في عيادته ينتظر الزبائن ، فلا يجيئون ، ويصير الانتظار مملا ، ويوشك ان يخونه جلده ، فيقوم الى رف الكتب فيتناول « فلسفة دوارانت » فكانت عينه تقع دائما على صفحة معينـة تتعمد ان يراها ؟ وفي اعلاها ذلك السطر · وجاءت الشهـرة لشوبنهاور وهو في السبعين · فمن يدري على غير رأيه اذ ذاك في ان الدنيا « بندول » يتأرجح بين الرغبة والالم وان السعادة ما هي الا تحقيق الرغبة · فهي صفة سلبية على كل حال · فيضحك للمشابهة التي بينه وبيـن شوبنهور ·· سوى ان شوبنهور كان متشائما · وأما جريس فمتفائل ·· وفي ان شوبنهور كان له كلب ·· وجريس ليس له ·

ذات مساء نام الحظ السيء وفي غفلته رأت العيادة لاول مرة منذ ثلاثة أشهر زبونين يدخلان فاستقبلهما الدكتور بنفسه واعتذر لغياب التمرجي لمرضه · وفي الواقع أجاد فحصهما · فدفعا له الاجر مضاعفا · فما كادا ينصرفان حتى أخذ يرن النقود فرحا · واعتزم أن يتعشى في المطعم الكبير المجاور · وأغلق العيادة وخرج مسرورا ، ومشى يترنح ، ويضع يده في جيبه بين حين واخر ليتأكد من وجود القطع الفضية ··· تعشى فـي

المطعم الكبير وطلب فنجانا من القهوة ، ثم كأسا من الويسكي • ثم رفع رأسه فخورا • ودار بعينه في الزبائن • ونظر اليهم نظرة المستخف ثم تناول طربوشه ودفع حسابه كأولاد الملوك ، وعاد يمشي الهوينا الى مسكنه •

كانت الليلة رائعة والقمر يسبح في السماء كشراع فضي في عباب هادىء ، ليلة من ليالي دمياط ، حيث ينام الناس مبكرين جدا ، وحيث يطل القمر على بيوت تضم قوما لا يهمهم ان يطلع القمر او لا يطلع • تجملت الطبيعة أو بدت جرداء كالحة • مشى الدكتور جريس الهوينا حتى بلغ داره • فرأى خيالا لشيء يرقد في جوار الباب ، فهزه بعصاه ، فاذا بكلب يهز ذنبه فرحا • فضحك جريس وقال في نفسه « كذب شوبنهاور » وأدار المفتاح في الباب ودخل والكلب يتبعه • فما كاد ينير الغرفة حتى رأى خيطا من الدم في اثر الكلب • فحمله الى غرفة العيادة وانحنى عليه يفحصه • فوجد جرحا غائرا في ساقه ، فضمده ، وعمد الى بقية باقية عنده من اللبن فسقاه اياها • ووجده يرتجف من النزف فعمد الى ثوب قديم عنده فلفه فيه • فنظر الكلب اليه بعينيه ، وحرك ذنبه ، فضحك جريس وقال « كلب

شوبنهاور ، وانصرف الدكتور انيه يعنى به • حتى استعاد صحته في بضعة ايام فأدرك الكلب ان واجبه أن يرد الجميل • فصار يعمل عمل التمرجي • أي يستقبل القادمين •

وقد شاء الحظ أن يتغير فأقبل الناس ، وتبدلت الدنيا . وصار « بوبي » يستقبل القادم ثم يقوده الى الطبيب ويعود الى الباب لينتظر غيره ؟ فاذا انصرف الناس حرك ذنبه للطبيب ونظر نحو الباب ، كأنما يستأذن هو ايضا ، ثم ينصرف ويعود قرب المساء • ولم يكن الطبيب يعلم مطلقا لم يصر « بوبي » على أن ينصرف في ميعاد محدد ، وقد حاول ذات يوم أن يحبسه فكان كأنما يبكي بكاء مرا ، فأطلقه •

ومرت الايام ، وهي تنتقل من حسن الى أحسن • وعرفت المدينة كلها أمر الطبيب الذي عنده « الكلب » وكانوا يدعونها عيادة « بوبي » باختصار • وتعلم بوبي ان يجلس المرضى في أمكنتهم وينهرهم غاضبا اذا « استغفلوه » وتقدم احدهم على غيره وكان الدكتور جريس قد أحبه وصار لا يرى له في الدنيا صديقا غيره ووثق منه ومن ذكائه تمام الثقة •

ذات مساء توافد الزبائن كعادتهم ، ولكن بوبي لم

يحضر ، وقلق الطبيب وصار ينظر من النافذة بين حين واخر لعله يرى خيال كلبه الامين عائدا وهو يسرع ويرفع رأسه الى النافذة كأنما يقول « هاأنذا » وتهامس المرضى فيما بينهم . وتطوع أحدهم للبحث عنه فقال الطبيب انه لا يدري أين يذهب الكلب بين الظهر والمساء . وابتسم قائلا « انه لا يتداخل في خصوصياته » .

وبينما هم في ذلك القلق العجيب اذ أقبل « بوبي » يصحبه كلب أعرج ولم يهتم بوبي في ذلك النهار بالزبائن بل دخل برفيقه . أو بالاصح رفيقته الى غرفة العيادة توا ، ونظر الى الدكتور وحرك ذنبه كأنما يقدم اليه صاحبته ويوصيه بها ، فانحنى عليها يفحصها . وقد أدرك سر انصراف بوبي ثلاث سنوات في ميعاد لا يغيره .

وبينما هو يفحص « مدام بوبي » سمع جلبة ووقع اقدام ، ورأى فتاة هيفاء رائعة الحسن تدخل عليه في اضطراب قائلة : هذه « كلبتي يا دكتور » وهذا الكلب الملعون هو السبب فيما أصابها فان له ثلاث سنوات لا ينقطع عن مودتها واليوم رأيتها من نافذتي ورأيته يدافع عنها ضد كلبة جارتنا التي عضتها في ساقها . فلما نزلت لاعيدها الى المنزل لم أجدها وعندما سألت عنها قيل لي ان « بوبي » الشهير اخذها الى عيادة الدكتور جريس .

ضحك الطبيب ورفع رأسه الى الزائرة الجميلة ، مشيرا اليها ان تجلس ، ثم قص عليها قصته وقصة بوبي ، وصارت « ماتيلدا » تأتي بكلبتها كل يوم لتضمد جرحها عند الدكتور وانتهت هذه القصة العجيبة بزواج الدكتور بماتيلدا وبوبي بصديقته بلا . وجمع الكل سقف واحد وحياة سعيدة . وأخذ الحظ يتألق ، وجاءت الشهرة لشوبنهور جريس قبل السبعين ، على يد كلب وفي .

الفهرس

الثمن ١٠ ليرات لبنانية